عبد الله كنون

جــولات
فى الفكر الاسلامي

1980 - 1400

مطبعة الشويخ «ديسبريس» - 4 شارع غورغيز - تطوان (المغرب)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

لم يكن الفكر الاسلامي في وقت من الاوقات بحاجة الى عرضه وتقديمه للناس في صورته الجلية، وحقيقته الناصعة كهذا الوقت، ذلك أن كثرة المذاهب والافكار، وتعدد الفلسفات والانظار، شغلت النـاس وأرهقتهم عسراً من أمرهم، فصرفتهم عن الدراسات الجادة والابحاث المستقصية، لا سيمـا في البـلاد التي غلبت عليها النزعة الماديـة، وأعرضت عن التربيـة الروحية، علما بـأن الدين أصبح فيها ظاهرة هامشية، فلم يبق لـه دور في حياتها اليومية يستوجب التأمل فيـه فأحرى التعمق والاستقراء.

وسرى هذا الاعراض بالعدوى الى أبناء الامة الاسلامية التي أقبلت على الحضارة الغربية بكليتها تصطنعها بما فيها من خير وشر، ونافع وضار، وأكثر مـا ملك عليها لبها وجردها من خصائصها، هذه المنهجية العلمية المزعومة التي تتنكر لكل ما لا يقع تحت الحس، ولا يخضع للتجربة العملية، ولـو كان حقيقة الحقائـق وأوجب الواجبات.

ومع أن الفارق كبير، وكبير جداً، بين مفهوم الدين عندنا وعندهم، بل واقعه الذي ما نزال نعيشه في شتى مجالات الحياة برغم عامل التغريب والاستلاب الذي تمكن منا ونفذ إلى الاعماق، فإن المسؤولين عن برامج التربية الوطنيـة في العالم الاسلامي لا يعيرون أدنى اهتمام للفكر الديني، وينظرون إليه نظر الغربيين القاصر على الجانب اللاهوتي منه، في سطحية متناهية، وبذلـك فقـد الاسلام الذي هو دين علم وعمل، ومعاش ومعاد، ومنهج حياة متكامل في العقيدة

والشريعة، والسياسة والاقتصاد، والاجتماع والاخلاق، فقد تأثيره على النفوس وأصبح اسما بدون مسمى عند الكثرة الكاثرة من أهله وذويه، وعلى العكس ما يقال ان أهل مكة أدرى بشعابها، صار هؤلاء أجهل الناس بمدينتهم وأكثرهم تيهاً في دروبها.

لكن الانصاف يقتضينا أن نقول ان ثلة من أهل العلم أدركوا هذا الضياع منذ أوائل القرن المنصرم الآن، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده، فعملوا على تجلية الفكر الاسلامي وإبرازه في أصدق صوره تعبيراً عن السمو الانساني والاصلاح الذي أتى به الدين الحنيف للبشرية جمعاء، وأوجدوا فلسفة جديدة للعقيدة والشريعة الاسلاميتين، تقف في صف واحد مع الفلسفة التي وضعها علماؤنا الاوائل لتحدي الفلسفة اليونانية وكل الفلسفات الملحدة في العالم القديم.

وكذلك يمكننا أن نضرب المهاجمين بأحجارهم، ونصد المتعسفين عن تعنتهم، كما فعل أسلافنا، حماية لعقيدتنا وشريعتنا، وإظهاراً لتفوقهما على كل الاديولوجيات والقوانين المعاصرة. التي لم نفتأ نتخبط في حبالتها، من حين بدأنا نحتك بالحضارة الغربية ونقتبس منها على غير هدى، ولكن هذه الفلسفة أو هذا الفكر الاسلامي المجدد، ما زال لم يعرف الطريق الى كتب تعليمنا ومناهجنا التربوية، وقوفاً مع ما ورثناه عن الاجنبي الذي قاومنا غزوه المادي ولم نقاوم غزوه الفكري، واعتقاداً بأن أساليبه ونظمه هي أفضل الوسائل وأقرب الطرق الى النجاح.

وكخطأ هؤلاء المستغربين، يخطئ من يظن ان الدين نقل محض من غير نظر ولا دليل، وكان يكفي هذا الفريق من الناس أن يعمل مقارنة بين المذاهب الاسلامية التي تلقتها الامة بالقبول، وهي التي تأخذ بالنظر والقياس، والمذهب المتحجر الذي يقف مع ظاهر النقل، فيرى أنه برغم حملاته الشعواء على علماء الملة وأئمة الهدى، لم يحظ بالقبول في عصر من العصور، فكيف يطمع في أن يحل محل المذاهب الاخرى في هذا العصر الذي يطبعه الرأي الحر والبحث العلمي، لا سيما وعندنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: « رب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » وقوله: « حدثوا الناس على قدر عقولهم، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ».

وغير خفي أن نواحي الفكر الاسلامي كثيرة ومتنوعة، وقد أشبعها علماؤنا المصلحون نظراً وبحثاً، وعلى الخصوص ما تعرض منها للنقد والتشنيع من خصوم

الاسلام كالمبشرين المسيحيين، والمستشرقين الحاقدين، فنقضوا دعاويهم وزيفوا أباطيلهم، وجددوا المعالم وأوضحوا السبل، بما أعاد للاسلام نضرته، وأوجب على الجميع حجته .

ونحن على نهجهم اللاحب، لا نزال نبين ما يحتاج الى البيان، ونعرض للمشاكل التي تطرحها الحضارة الغربية على مجتمعنا الاسلامي، كقضية المرأة ونظام الحكم والتنمية الاقتصادية وغير ذلك، فنقرر نظر الاسلام فيها بما يزيل كل شبهة ولا يبقى لغيره صلاحية، إلا أننا في هذا الكتاب، وإن لم نحد عن الخط، سنتطرق للفكر الاسلامي من ناحية مصادره الاصلية، والتطورات الطارئة عليه، وحياته المستقبلية، وطبيعة بعض الدعوات القائمة في المغرب، والشخصيات التي قامت بها، ونشوء ما يسمى بالعمل في التشريع المغربي، وحياة الدعوة والدعاة في المغرب، وغير ذلك مما يكون دراسة موضوعية مبنية على المعرفة ومطعمة ببعض النظريات الجديدة عن الاسلام ودعوته، والمنهج العقلي الذي يجب أن يقدم به في العصر الحاضر، وذلك ما يمكن أن نجمله في عبارة جولات في الفكر الاسلامي .

عبد الله كنون الحسني .

ذكرى نزول القرآن وتحقيق في تاريخه

ان ذكرى اي حادث تقتضى اولا وبالذات التعرض لتاريخ ذلك الحادث، وتحديد زمن وقوعه، ليطابق وقت الذكرى الحادث المذكور، لا من حيث الظروف الزمنية التي وقع فيها فحسب، بل ومن حيث الاحوال والملابسات التي صحبته وارتبطت به، فان أية ذكرى انما يراد بها التأمل والاعتبار، ولابد من توفير الاسباب المادية والمعنوية التي تعين على تحقيق هذا الغرض المتوخى من الذكرى.

1) ونزول القرآن الكريم على النبي (ص) هو باتفاق المسلمين كان منجما اي مفرقا بحسب الوقائع التي تقتضى نزول ما ينزل منه اما جوابا عن سؤال وجه اليه (ص) او حكما في قضية عرضت عليه، او ردا على زعم من مزاعم المشركين في مسائل الاعتقاد والبعث والجزاء، او نقضا لمطعن من مطاعن اليهود والنصارى في الرسالة المحمدية والدين الاسلامي، او بيانا عاما للناس جميعا في الدعوة الى الله، وحقائق الايمان، واصول التشريع، واحوال المعاد، مما اضطلع الرسول الاكرم بتبليغه الى الخلق مدة الرسالة لهدايتهم الى الدين القويم.

وهذا الامر قد افصح به القرآن في معرض الرد على الكفار الذين انتقدوا عدم نزوله مرة واحدة « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك » (1) اي انزلناه كذلك منجما لتثبيت فؤادك بالوحي المتتابع الذي تتجدد به صلتك بالسماء ويستمر امدادها لك بالعون، فيطمئن المومنون الى عناية الله بك، ورعايته لك، ويرتدع الكفار عن تكذيبك ومحاجتك، لان في ذلك تصديقك وتزكية دعواك للرسالة، بل تسهيل الامر عليك وعلى المومنين بعدم إلزامهم بالتكاليف الشاقة دفعة واحدة.

2) وقد نشأ عن نزول القرآن بهذه الصفة، علوم ومباحث واسعة تسمى علوم القرآن، لابد للمفسر ان يلم بها، والا عميت عليه الانباء في معرفة معاني الآي الكريمة واسرار التنزيل.

فمنها العلم باسباب النزول، وذلك ان القرآن مِنه ما نزل ابتداء، بيانا للناس، ومنه ما نزل بسبب ما، جواباً عن سؤال او حكما في قضية مثلا على ما مر آنفا. فيحتاج المفسر لمعرفة هذا السبب، وقد عني به العلماء شديد العناية وافردوه بالتآليف العديدة.

ومنها معرفة المكي والمدني اي ما نزل منه قبل الهجرة والنبي (ص) مقيم بمكة، وما نزل بعدها والنبي مقيم بالمدينة، ويحتاج اليه لمعرفة المتقدم من المتأخر، وتترتب على ذلك احكام، فضلا عن التفرقة بين طبيعة الدعوة في الفترتين. ولا تقل عناية العلماء بهذا البحث عن سابقه.

ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ، فان بعض الاحكام التي تقررت في اول الاسلام انما كانت موقتة للتدرج في التشريع ثم نسخت بعد ذلك، ويجب العلم بها لما تتضمنه من حكم كالتيسير على

---

1) سورة الفرقان الآية 32.

الامة، وبما ان الجهل بذلك ربما يؤدي الى الوقوع في المحظور، فقد روي عن علي (ض) انه قال لقاض اتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال لا. قال هلكت وأهلكت (1).

وقد اهتمت الامة بهذا الفرع من علوم القرآن اشد الاهتمام، وخصته كتب الاصول بدراسات قيمة، واما الذين الفوا فيه على انفراد فهم خلائق لا يحصون من المتقدمين والمتأخرين.

وهكذا نرى عمليا ان القرآن نزل مفرقا، وفي اوقات متباعدة، وان تاريخه هو تاريخ الرسالة، ومدته هي مدتها او قريبا من ذلك، وانه لا يصح ان يقال ان القرآن اي المصحف نزل في تاريخ كذا، لتاريخ معين لا يمتد من تاريخ البعثة الى ما قبل وفاة النبي (ص) بقليل.

3) نعم هناك مبدأ النزول اي اول يوم نزل فيه شيء من القرآن، وهذا هو الذي يعطينا تاريخ الذكرى، لانه يعتبر كيوم لولادة الذي يحتفل به سنويا كثير من الناس.

ولقد صرح القرآن بان نزوله كان في رمضان، وفي ليلة القدر منه على الخصوص، كما قال تعالى (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن) (2) وقال (انا انزلناه في ليلة القدر) (3) واكد ذلك بالنسبة الى الليلة المذكورة قوله في الآية الاخرى (انا انزلناه في ليلة مباركة) (4).

واذن فقد تحدد نزول القرآن بشهر معين، وليلة مسماة

---

1) الاتقان للسيوطي ج 2 ص 20.
2) سورة البقرة الآية 185.
3) سورة القدر الآية 1.
4) سورة الدخان الاية 2.

منه ولكن بقى تحديد السنة التي منها هذا الشهر، وان لم يتوقف عليها غرض الذكرى، الا في عدد ما مر عليها من السنين .

ومن السهل ان نقول انها السنة الاولى للبعثة، ضرورة ان النزول كان مقرونا بهذه (1) .

وبعثة النبي (ص) كانت في القول المشهور الذي يأخذ به الجمهور، بعد مرور اربعين سنة على ميلاده الشريف . وبما ان ميلاده كان في ربيع الاول من عام الفيل، لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، على القول المعتمد، فان رمضان الذى انزل عليه فيه كان سنة احدى واربعين من ميلاده .

فيكون قد مر على نزول القرآن الان أربع عشرة مائة سنة، بزيادة ثلاث عشرة سنة على عامنا هذا الذي هو عام 1387 وذلك بالنظر لكون مدة الرسالة ثلاثا وعشرين سنه، ثلاث عشرة بمكة قبل الهجرة وعشرا بالمدينة بعدها . وهو قول الجمهور الذي عليه المعول (2) .

وبالنظر لقول انس انه (ص) مكث بمكة بعد الرسالة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، يكون قد مر على هذه الذكرى ثلاث عشرة وسبع وتسعون سنة فقط . ولكنه قول انفرد به أنس (3) وقال العلماء انه مبني على الغاء السنوات الثلاث التي فتر فيها الوحي

وثم قول ثالث بأنه (ص) مكث بمكة خمس عشرة سنة

---

1) انظر الزرقاني على المواهب ج ل ص 207 .
2) المصدر السابق ج ص 208 .
3) طبقات ابن سعد ج ل ص 190 .

بعد البعثة (1)، فيكون الان قد مر على نزول القرآن عامان اثنان واربعة عشر قرنا . وتمام ضبط هذا التاريخ يحملنا على تعيين يوم النزول ايضا من رمضان فلا يبقى مشاعا بين ايام الشهر كله . وقد اشتهر انه كان يوم الاثنين لسبع عشرة خلت منه رواه ابن سعد (2) واخذ به غير واحد، وهو يخالف ما صرحت به الآية الكريمة من نزوله في ليلة القدر، الا اننا نعلم ان هذه الليلة قد اختلف فيها هي الاخرى، ومن جملة الاقوال فيها انها متنقلة بين ليالي رمضان، فيحتمل ان تكون في ذلك العام صادفت اليوم المذكور .

لكن الصحيح والذي عليه العمل أن ليلة القدر هي ليلة سبع وعشرين، لما في البخاري من قوله (ض) التمسوها في العشر الاواخر (3)، ولما في مسلم من ان ابي بن كعب قيل له ان اخاك ابن سعود يقول من يقم الحول يصب ليلة القدر فقال رحمه الله اراد ان لا يتكل الناس اما انه قد علم انها في رمضان وانها في العشر الاواخر وانها ليلة سبع وعشرين ثم حلف لا يستثنى انها ليلة سبع وعشرين بالعلامة التي اخبرهم بها النبي (ص) (4) .

4) ـ هذا تاريخ نزول القرآن بمعنى مبدأ نزوله، مأخوذاً من القرآن نفسه، وهو احد المعنيين الذين حمل العلماء عليهما الآيات الواردة في ذلك .

---

1) البرهان للزركشي ج ل 232 .
2) الطبقات ج ل ص 192 .
3) البخاري ج ل ص 252 .
4) صحيح مسلم ج 2 ص 126 .

والمعنى الثاني ان نزوله كان جملة واحدة الى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجما في مدة الرسالة التي تتراوح بين عشرين سنة وخمس وعشرين سنة على الخلاف فيها. وهو قول اكثر المفسرين، وتؤيده الرواية الصحيحة عن ابن عباس قال انزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، اخرجه الحاكم في وقال المستدرك صحيح على شرط الشيخين، واخرجه النسائي القرآن بلفظ فصل من الذكر، فوضع في بيت العزة من السماء جبريل الدنيا فجعل ينزل به على النبي (ص)، قال البدر الزركشي واسناده صحيح.

ومعلوم ان هذا لا يقال من قبل الرأي فحكمه الرفع الى النبي (ص)، وهذا النزول الغيبي ان كان ما يحمل على القول به هو ابقاء الآيات الواردة في نزول القرآن على ظاهرها من نزوله جملة واحدة، فانه لا يعارض نزوله الحسي في التاريخ المذكور اي ابتداء نزوله على النبي (ص) مفرقا، بل ان الرواية نفسها تشير الى ذلك، وتبين المراد به فهما اذن نزولان، غيبي وحسي، وتاريخهما واحد.

ويتساءل العلامة الزركشي عن السر في هذا النزول ويجيب عن ذلك بقوله « فان قيل ما السر في انزاله جملة الى السماء؟ قيل فيه تفخيم لامره وامر من نزل عليه، وذلك باعلان سكان السماوات السبع ان هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لاشرف الامم، قد قربناه اليهم لننزله عليهم » (1).

على اننا يمكن ان نقول في حكمة ذلك انه لاطلاع الملائكة وجميع المؤمنين بالغيب على احاطة علم الله تعالى في

---

1) البرهان ل ص 229. والجملة الاخيرة التي وردت فيه هكذا: ولقد صرفناه اليهم لينزله عليهم. وقد صححناها من الاتقان.

الازل بواقع الاشياء كما تقع فيما لا يزال، خلافا لمن نفى علمه بذلك من الفلاسفة والمعتزلة، وقال انما يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات فهو برهان يطمئن اليه المؤمن، ويتأيد بممارسة السيرة ودراسة القرآن.

5) وكان اول ما نزل هو قوله تعالى «اقرأ باسم ربك» (1) كما تفيده السنة الصحيحة، ففي البخاري عن عائشة قالت «اول ما بدىء به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه وهو التعبد، الليالي ذوات العدد، قبل ان ينزع الى اهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ، قال ما أنا بقاريء، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ قلت ما انا بقاريء فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقاريء، فاخذني فغطني الثالثة ثم ارسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم، فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده» الحديث (2).

لكن جاء في صحيح مسلم عن جابر «أول ما نزل من القرآن سورة المدثر» (3) وهذا محمول عند العلماء على ما بعد

1) سورة العلق الآية.
2) البخاري ج ل ص 3 وقوله فغطني اي ضمني الى صدره قصد الاستيناس وازالة الرعب، وانتهت رواية البخاري الى قوله وربك الاكرم، ولكن رواية مسلم تنتهي الى قوله ما لم يعلم.
3) ج ل ص 66.

فترة الوحي التي تلت النزول الاول(1) والروايات المختلفة الالفاظ للحديث عند البخاري وعند مسلم نفسه تؤيد ذلك . ونورد هنا رواية البخاري لوضوحها واختصارها، وهي عندهما معا من طريق ابن شهاب الزهري عن ابي سلمة بن عبد الرحمان عن جابر ان النبي (ص) قال وهو يحدث عن فترة الوحي «بينما انا امشي اذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض، فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني، زاد مسلم فدثروني» فأنزل الله تعالى يا ايها المدثر، قم فانذر، الى قوله والرجز فاهجر، فحمي الوحي وتتابع (2) .

فبان بهذا ان الاولية الحقيقية هي التي في حديث عائشة، وان التي في حديث جابر انما هي اولية اضافية، لان الحديث عن فترة الوحي لا يكون الا بعد وحي سابق، زيادة على ان مضمون الآيات المفتتح بها سورة المدثر وافتتاحها هذا، مما يؤذن بسبق خطاب اقرأ على خطاب يا ايها المدثر .

ومما ينبغي تسجيله بعد تحقيق تاريخ النزول واول ما نزل، مما تضمنه حديث عائشة، ان مكان النزول الاول هو غار حراء وبذلك نكون قد تعرفنا الظرفين الزماني والمكاني لنزول القرآن الكريم اول ما نزل .

والامر الرائع في اول القرآن نزولا هو هذا الخطاب الالهي السامي المتضمن لطلب القراءة من النبي (ص) ولفت نظره الى التفكير في خلق الانسان والاشادة بالعلم، مما يدل على ان خاصية

---

1) البرهان للزركشي ج 1 ص 206 .
2) صحيح البخاري ج 1 ص 4 .

الدعوة الاسلامية هي المعرفة، ومن ثم قال كثير من علمائنا انها اولَ الواجبات على المكلف، وقال آخرون ان اول الواجبات النظر الموصل الى المعرفة. وفاهيك بهذا، على ان الحظ على العلم والتنويه به وبأهله مما طفح به القرآن الكريم والسنة النبوية حتى اصبح معلوما من الدين بالضرورة. واذا كان اول ما نزل هو قوله تعالى : اقرأ باسم ربك كما ثبت لدينا بالدليل القاطع، فان آخر ما نزل على الراجح والمعتمد هو قوله تعالى « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » الآية (1) اخرجه النسائي وابن مردويه والطبري عن ابن عباس (2) وهذا يرشدنا الى ان ثمرة المعرفة هي التقوى التي تعني حسن السلوك ومحاسبة النفس، فالعلم في الاسلام ليس غاية في ذاته، ولكنه وسيلة الى تزكية النفس ونفع العباد حتى يكون الانسان خليقا بهذا المنصب الرفيع الذي اهل له منذ وجود اول فرد منه، وهو خلافة الله في ارضه، المقتضية لاعلاء منار شريعته الكفيلة بسعادة الدارين .

6) ـ والقرآن معجزة الاسلام الباقية على مر الزمن، تقيم له الحجة على البشر، وتؤيد دعوته بما تأيدت به الدعوات التي سبقته من الامور الخارقة للعادة. الا ان تلك الخوارق قد انقضت بانقضاء مدتها، والقرآن ما يزال ولن يزال قائما بالحجة ناهضا بالدليل الى ان يرث الله الارض ومن عليها، وذلك لان الاسلام هو آخر الاديان ورسوله هو خاتم الرسل، فلئن كانت رسالة السماء فيما مضى من الاحقاب تتأيد بمعجزات الرسل الذين كان بعضهم يأتي في اعقاب بعض معلما مرشدا ومشرعا مجددا، لان الانسانية

---

1) سورة البقرة الآية 281 .

2) الاتقان للسيوطي ج ل ص 27 .

كانت ما تزال في طور النمو لم تبلغ رشدها العقلي بعد، فانها بعد البعثة المحمدية قد دخلت في سن الاكتمال والنضج الفكري، ولم تبق بحاجة الى من يحضنها ويرعاها، ويمثل لها المعقول بالمحسوس والغائب بالحاضر، ولكن عليها ان تستعمل فكرها وتجيل النظر في آيات الله وملكوته، وفي خلقها ونفسها، لتعرف الحق بالدليل العقلي القاطع وتصل الى اليقين بالحجة والبرهان الذي لا يقبل النقض .

وهذا هو ما جاء به القرآن ودعا اليه القرآن، ففي كل عصر، وفي كل جيل، يقوم القرآن بالمهمة التي كانت تقوم بها المعجزة المحسوسة لتصديق الرسول، ولكنه معجزة معقولة تخاطب الضمير والوجدان، وتستثير الانسان لتحكيم عقله والاعتبار بما نصب الله عز وجل في الكون من آيات بينات، وشواهد واضحات، على وجوده وألوهيته ووحدانيته وصدق رسوله فيما اخبر به عنه من أحوال المعاد وما دعا اليه من عبادته والعمل بشريعته التي تحقق السعادة الابدية وتكفل للناس ما يصبون اليه من طمأنينة نفس وراحة بال .

فمن هنا كان القرآن معجزة الرسالة الخاتمة (اولا) لان البشرية بما حققت من تطور في ميدان العلم والمعرفة، اصبحت تتطلب معجزة من قبيل ما تأخذ به من دلائل العقل وقضايا المنطق لا ما يستهوي الحس ويمتلك البصر فقط (وثانيا) لان استمرار الرسالة المحمدية بحكم ختميتها يقتضي استمرار معجزتها المؤيدة لها، ولا يمكن ان تكون المعجزه المحسوسة مستمرة والا صارت امرا عاديا، فلم يكن بد من المعجزة العقلية الباقية ببقاء الدعوة، وقد كانت هي القرآن.

وهذا المعنى هو ما عبر عنه الحديث الشريف المخرج في صحيح البخاري عن ابي هريرة قال، قال رسول الله (ص) ما من الانبياء نبي الا اعطى ما مثله آمن عليه البشر، وانما كان الذي اوتيت وحيا اوحاه الله الي، فأرجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة (1)،

وقد زاد الحديث على اصل المعنى شيئا آخر، وهو رجاؤه (ص) ان يكون اكثر الانبياء اتباعا يوم القيامة. ورجاء النبي محقق قطعا، فاما بالنسبة الى الانبياء السابقين الذين انقضت دياناتهم، فذلك مسلم، لان المومنين بهم كانوا قلة كما نطقت به الآية الكريمة في حق نوح عليه السلام، اذ تقول (وما آمن معه الا قليل) (2) ولان تعاقب الانبياء الواحد تلو الاخر يجعل اتباع كل نبي بحكم قصر المدة التي بينه وبين الذي يليه عددا قليلا. واما بالنسبة الى الاديان الباقية، فاليهودية امرها لا خفاء به، والمسيحية وان كان التعداد الرسمي لاتباعها يفوق تعداد المسلمين، الا أن واقعها ليس كذلك، فان اكثر المسيحيين اليوم ملحدون، هذا في البلاد غير الشيوعية، واما في هذه البلاد فمن الذي يقول ان سكانها مسيحيون ؟ واما قبل اليوم فان المسيحيين كانوا قلة ولم يكثر سكان اوربا الا بعد عصر النهضة وتقدم الطب والعناية بالمواليد وتدبير الصحة، ولكن صحب ذلك انتشار الالحاد فلم يكن كل سكانها دائما من المتدينين

بقيت الاديان الشرقية من بوذية وغيرها، والقول فيها مثل القول في المسيحية، فانها لم يكثر اتباعها الا في العصور المتأخرة وقد فشا فيهم الالحاد فشوا ظاهرا، على انها في الحقيقة

---

1) البخاري ج 4 ص 183.
2) سورة هود الاية 40.

اديان متعددة وليس اتباعها ملـة واحـدة، وان اعتبرهـم التعداد الرسمي كذلك. وها هي ذي الصين الشيوعية تتبرأ من الدين وتنشر الالحاد كزميلتها روسيا، بل انها لتتحمس للينينية اكثر من قوم لينين.

وليس يخاف ان التعداد الرسمي لاتباع الاديان في العالـم يصدر من جهات غير مامونة على الحقيقة في هذا الصدد، فبقطع النظـر عما بينـاه مـن عدم انطباق الخبر على الواقـع في امـر المسيحية، نجد ان عدد المسلمين يكون دائما اقل مما هـو في الحقيقـة، لان تلك الجهـات تتعمد ذلـك قصد التهوين مـن شأن الاسـلام والفت في عضد اتباعـه، والرفع من معنويات المسيحيين واظهارهـم بمظهر التفـوق في كل شيء حتى في عددهـم، والا فان آخـر احصاء نشـر في هذه السنـة وهـو يجعل عـدد المسلمين اربعمائة مليون، في حيـن يجعل المسيحيين ثمانمائة مليون، هو مما يكذبه الواقع تكذيبا قاطعا، فان عدد المسلمين في باكستان واندونيسيا والهند والصين وتركيا وايران والافغان، هو وحـده اكثر من اربعمائة مليون، فاين بقيـة المسلمين في آسيا وهم العرب، وفي افريقيا ومنهم عرب كالمصريين والافارقة الشماليين، وغير عـرب كأهل الاقطـار الافريقية الاخـرى؟ وايـن مسلموا اوربا بالمنتشرون بكثرة في روسيا ويوغوسلافيا وبولونيا وفلندا والبانيا وغيرها من دول اوربا؟ واين مسلموا الفلبين والامريكيتين؟.

على اننا تنزلنا باعتبار هذه الاديان المخالفة للاسلام اديانـا حقيقية، جريا على ما يقضي به العرف والقانون. واما اذا نظرنا اليها بنظـر الاسلام وهو النظر الصحيح، الذي يتوافق مع مراد الرسول (ص) في حديثه الآنـف الذكر، فانها اديان محرفـة عن وضعها الالهي، أو اديان وثنية لا اعتداد بها في مفهوم الديـن الحـق،

ولن يكون لمعتنقيها صلة او سبب يربطهم برسل الله عليهم الصلاة والسلام حتى يقال انهم سيكونون من اتباعهم يوم القيامة، فان الرسل اول من يتبرأ منهم في ذلك الموقف الهائل على ما جاء في القرآن (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب (1) وقال تعالى في آية أخرى خاصة بالمسيح عليه السلام (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق، ان كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك، انك انت علام الغيوب، ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم، وانت على كل شيء شهيد) (2) .

نخلص من هذا ان نبينا (ص) هو كما قال: أكثر الانبياء إتباعا يوم القيامة، وذلك منسجم مع كون رسالته دائمة مستمرة ببقاء الزمن، لانها خاتمة الرسالات، ولذلك كانت معجزتها باقية دائمة وهي القرآن.

7) وذكرى نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، ذكرى عظيمة بل هي اعظم الذكريات على الاطلاق، لان القرآن كتاب الله اي رسالته الخالدة الى البشر التي اخرجتهم من الظلمات الى النور، واستنقذتهم من الضلال الى الهدى، وضمنت لهم سعادة الدنيا والآخرة إن هم عملوا بها ولم يتخذوها ورآهم ظهريا.

كان الناس يهيمون في اودية الجهل بالله فمنهم من

---

1) سورة البقرة الاية 166.

2) سورة المائدة الاية 116ـ117.

يجعل معه إلها آخر ومنهم عبدة أصنام، ومنهم يقول انما هي ارحام تدفع وارض تبلع وما يهلكنا الا الدهر، فجاء القرآن بالتوحيد، مزيفا عقيدة الشك، ومسفها عقول الوثنيين، ورد على الدهريين بما ابطل دعواهم والزمهم الحجة على وجود الله، هاك مثلا قوله في الرد على النصارى الذين يزعمون ألوهية المسيح وامه « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة، كان ياكلان الطعام» (1) وقوله في الرد على عبدة الاصنام « اتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وما تعلمون » (2) وقوله في الرد على الدهريين «قتل الانسان ما اكفره، من اي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره » الاية (3) .

ثم عرف المومنين بالله عز وجل تعريفا يحصل معه الاطمئنان وتنتفى عنه الوساوس، فدلهم على صفاته وافعاله ولم يشغلهم بماهيته وذاته، علما بقصورهم عن إدراك حقيقته، وكيف يحيط الفاني بالباقي ؟ « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار، وهو اللطيف الخبير » (4) .

ومع ان نعمة المعرفة له عز وجل هي اعظم النعم، وهي التي تقطعت دونها اعناق الفلاسفة منذ القدم، فان القرآن لم يكتف بهداية البشر الى هذه النعمة بل زاد فتفضل عليهم بالارشاد الى كيفية شكرها الواجب، وذلك بأن دلهم على طريقة عبادته تعالى والتقرب اليه وطلب مرضاته، وهي ايضا الطريق التي

---

1) سورة المائدة الاية 75
2) سورة الصافات الاية 95-96.
3) سورة عبس الاية 17-19
4) سورة انعام الاية 103

ضل فيها من لا يحصى عددا من الحكماء المتالهين « الم، ذلك الكتاب لا ريب، فيه هدى للمتقين الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يومنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون » (1) .

وكان من اعظم مقاصد القرآن ان شرع للناس ما ينظمون به احوالهم المعاشية ويضبطون به امور الحياة الدنيا من قوانين واحكام غبرت في وجه كل ما وضع من طرف البشر في هذا الصدد لانها صانت مصالح الفرد والجماعة، وحمت حقوق الناس جملة وتفصيلا، وكان رائدها تحقيق العدالة الاجتماعية والحرص على المساواة بين عباد الله، فانها لم تقم للانسان ميزانا الا ميزان التقوى اي الاستقامة «يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم» (2)

كما وضع القرآن دستور الاخلاق والسلوك الحسن والمعاملة الطيبة للناس « ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون، واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » (3) .

وتاتي العقدة التي حارت عقول المفكرين في حلها وهي ما بعد الموت او الحياة الآخرة، فاذا بالقرآن يكشف عنها الستار ويعطي عنها بيانات مدهشة مصحوبة بالادلة المقنعة والحجج الواضحة

---

1) سورة البقرة الآية 1 ـ 5 .
2) سورة الحجرات الآية 13 .
3) سورة النحل الآية 90 ـ 91 .

التي تجعل الغيب واقعا والمتخيل محسوسا وتوحي بالايمان العميق بالبعث والحساب والجزاء مما خلت منه حتى الكتب السماوية الموجودة بأيدي المومنين بها، متذرعا بذلك الى ايجاد وازع ديني عند كل فرد فرد يحجزه عن اقتراف الاثم وارتكاب العدوان، لانه يعلم انه مسؤول عن كل ما قدم وانه لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع، وان الآخرة هي دار القرار، من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها، ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مومن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » (1) .

هكذا هدى القرآن البشر من الضلال، وانار لهم سبل الحياة الطيبة الراضية المرضية في الدنيا والآخرة، فاي خير عظيم هذا الذي انزل في ليلة القدر من شهر رمضان واي ذكرى تعادل هذه الذكرى التي اتاحت للبشر ان يسعدوا سعادة لا شقاء بعدها ابداً.

ان شهر رمضان يشرف بوقوع هذا العطاء الكريم فيه « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » (2) وان ليلة القدر التي فضل بها شهر رمضان غيره من الشهور، ليثقل وزنها بهذه الكرامة التي خصت بها حتى لا توازيها ليلة من ليالي الدهر « انا انزلناه في ليلة القدر، وما ادراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من الف شهر، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر، سلام هي حتى مطلع الفجر » (3) .

---

1) سورة غافر الآية 39 ـ 40 .
2) سورة البقرة الآية 185 .
3) سورة القدر الآية 1 ـ 5 .

وليست هذه الذكرى مما يفي بحقها كلمة قصيرة مثل هذه، ولكن استشعار عظمة المذكور الذي هو في الحقيقة منزل القرآن، والاستغراق في سبحات جماله وجلاله، والتعرض لنفحاته القدسية، والحضور بالقلب والقالب ساعة الذكرى، لا تستفاد من الكلمات قصيرة كانت او طويلة، وانما تستفاد من الايمان بالقرآن والعمل برسالة القرآن « ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » (1) .

---

1) سورة آل عمران الآية 53 .

الحديث وقيمته العلمية والدينية

لعل علم الحديث رواية ودراية هو مما تتمثل فيه العبقرية الاسلامية أكثر من غيره من العلوم حتى الفلسفة وعلم الطبيعة والرياضيات. وقد يبدو هذا الرأي غريباً في بادىء النظر، ولكن لا غرابة وهذه العلوم قد قيل ان المسلمين لم يبتكروا فيها شيئاً، اونما نقلوها نقلا مجرداً عن الامم السالفة بخلاف علم الحديث، فانه من وضع المسلمين وابتكارهم ولا يستطيع أحد ان يقول غير ذلك ولا أن يشكك فيه .

وليس هذا فقط، فإن الدارس لهذا العلم المتعمق فيه قد يطلع منه على آفاق رحيبة من الابحاث المنهجية والدراسات الموضوعية في علم الاخلاق والاجتماع والقانون والسياسة والاقتصاد، فلا يكون عنده أدنى ريب في أن الحضارة الاسلامية مبناها على هذا العلم، وانها ان استفادت من معارف يونان وفارس والهند شيئا فإنها في عناصرها النفسية انما ترجع الى كتاب الله والسنة المبينة لـه .

وقد جرى الناس على ان ينظروا لعلم الحديث نظرة دينية بحتا فهم لذلك يسقطونه من الحساب اذا ذكروا العوامل التي أدت الى نهضة العالم الاسلامي، تلك النهضة التي أتت أكلها الشهي منذ الجيل الاول الذي تلا ظهور الاسلام وما زالت تنمو وتعظم

حتى بلغت في القرن الخامس الهجري الى ما لم تبلغه في أمة أخرى قبل ذلك . ولكنهم مخطئون في هذا النظر : ولو شاءوا ان يعرفوا الحقيقة من غير ان يكلفوا أنفسهم عناء البحث في هذا الموضوع، لاقتصروا على التفكير في ان الرسول صلوات الله عليه وسلامه لبث في قومه بعد الرسالة ثلاثا وعشرين سنة يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وقومه هم العرب الذين يعرف الناس أنهم ليسوا بشعب غبى ولا بدائي، وهم في الوقت نفسه كانوا مكتنفين بشعوب حية وبقوم من يهود ونصارى لا يفتأون يعارضون دعوته ويوردون عليها مختلف الايرادات، فهو لم يقصر دعوته على مسائل الدين فقط، ولم يكن يعلم المسلمين أمور العبادات فحسب، بل كان يعلمهم آداب السلوك وأحكام المعاملة من البيع والشراء والصرف والحوالة والسلف والرهن وما الى ذلك، ويلقنهم أساليب الحرب وطرق الحكم، ويرشدهم الى السياسات المختلفة في علاقاتهم مع الدول الموالية والمعادية. ويتولى قسم الاموال بينهم وتوزيع الاراضي المغلة عليهم ويعقد المجالس الاستشارية كلما حز به أمر ليقبح لهم الاستبداد، ويقفهم على اسباب حياة الامم وهلاكها ليعرفوا كيف يحافظون على كيانهم اذا صار الامر اليهم من بعده، وهكذا لم يدع شاذة ولا فاذة مما به قوام الحياة ونظام الدنيا الا علمهم اياه، ألم يقل الكفار لسلمان رضي الله عنه: « لقد علمكم نبيكم كل شيء » (1)؟ بل انه في تنزلاته معهم كان يخاطبهم بدقائق المعارف ويجيب على أسئلتهم الطبية والطبيعية بما لم ينقضه العلم حتى الان، ويصحح لهم أغلاط الاخباريين من اهل الكتاب، واغلاط عرفائهم

1) سنن أبي داود ج ل ص 3 ومسند أحمد ج 5 ص 437 .

في تفسير الظواهر الجوية ونحوها حتى لقد دعا ذلك اليهود ان يسألوه عن حقيقة الروح « ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (1) .

إن مجرد استعراض سريع على هذا النمط، لسيرته عليه السلام كاف ليعرف من لم يكن يعرف ان علم الحديث هو جماع المعارف الاسلامية سواء الدينية منها والدنيوية . وإذا كان هذا في عهده صلى الله عليه وسلم، فما ظنك بهذا العلم، وقد تناولته القرائح الخصبة والافكار الناضجة، وكتب العلماء فيه من الابحاث القيمة والدراسات الرائعة ما لا يعرف قدره إلا من وقف عليه ؟ .

وإذا كان الحديث عن ذلك يطول، فلنكتف بالكلام على اصل هذا العلم والطريقة التي دون بها، والجهود التي بذلها العلماء لتمييز صحيحه من سقيمه، وهذا ما يراد بعلم الحديث رواية ودراية، وهو وحده دليل ناهض على عبقرية الفكر الاسلامي الذي يغفل الباحثون عن تتبع آثاره في هذه الميادين .

أما اصل علم الحديث فهو اقواله صلى الله عليه وسلم وافعاله ونومه ويقظته وحركاته وسكونه وقيامه وجوده واجتهاده وعبادته وسيرته وسراياه ومغازيه ومزاحه وجده وخطبه واكله وشربه ومشيه وسكوته وملاطفته أهله وتأديبه فرسه وكتبه الى المسلمين والمشركين وعهوده ومواثيقه وألحاظه وانفاسه وصفاته، مما رواه عنه من الصحابة اربعة آلاف رجل وامرأة، كما يقول الحاكم النيسابوري في كتابه المدخل الى علم الحديث (2)

---

1) سورة الاسراء الآية 85 .

2) المدخل الى علم الحديث للحاكم النيسابوري ص 12 من طبعة لندن .

صحبوه نيفا وعشرين سنة بمكة قبل الهجرة، ثم بالمدينة بعد الهجرة، سوى ما حفظوا عنه من احكام الشريعة، وما سألوه عن العبادات والحلال والحرام وتحاكموا اليه فيه، وقد تأدى ذلك من الصحابة الى التابعين فمن بعدهم الى عصر التدوين.

وكان عمر بن عبد العزيز اول من امر بتدوين الحديث خوف ضياعه (1)، واكد هذا الامر ابو جعفر المنصور، فانتدب لذلك ابن شهاب الزهري، وكان سابق الحلبة، إلا ان عمله انما كان تدوينا مجرداً من غير تبويب ولا ترتيب، واما الجمع مرتبا على الابواب، فوقع في نصف القرن الثاني، وكان ممن قام بذلك ابن جريج بمكة، ومالك او ابن إسحاق بالمدينة، وهشيم بواسط ومعمر باليمن، وابن المبارك بخراسان، والربيع بن صبيح او سعيد بن ابي عروبة او حماد بن سلمة بالبصرة، وسفيان الثوري بالكوفة، والاوزاعي بالشام وجرير بن عبد الحميد بالرى (2).

وكان الذي ألف مالك هو كتابه الموطأ، ولعله الكتاب الوحيد الذي وصلنا بالرواية الصحيحة من تأليف هذا العصر، ولذلك نتخذه نموذجا للطريقة التي دون بها علم الحديث في اول الامر.

والموطأ وان لم يكن فى الواقع كتاب حديث مجرد لانه يحتوي على كثير من الفقه والاستنباط وأقوال السلف ومذاهب الصحابة، الا أنه فيما اشتمل عليه من الحديث يعطينا فكرة صادقة عن الجهد الذي بذله الامام مالك في تحري الاحاديث الصحيحة، وعدم الرواية الا عن الاعلام الا ثبات الثقات، فقد قيل انه لما ألفه أولا كان يشتمل على نحو عشرة آلاف حديث، ولم يزل ينتقى منه

---

1) صحيح البخاري ج ل ص 24 .
2) تدريب الراوي للسيوطي ص 24 .

ويختار حتى لم يبق منه الا نحو ألف حديث، وهذه النسبة وهي واحد من عشرة أو قل عشرة من مائة هي التي عمل عليها تقريبا جل المؤلفين في الحديث بعد ذلك، لا سيما أئمة الصحيح بل انها لتنزل عند بعضهم الى أقل من ذلك بكثير مع العلم بأنها نسبة الى ما ثبت عندهم من الاحاديث ووقع لهم فيه اشتباه ما، لا أنها نسبة الى محفوظهم فإن هـذا كثير يكاد لا يسلم به أهل هذا العصر الذين ضعفت أو انعدمت فيهم بالمرة ملكة الحفظ، ناهيك بما قيل عن الامـام أحمد بـن حنبل من انه كان يحفظ مليـون حديـث (1).

ورتـب الامام مالـك كتابه الموطـأ على الابـواب والمسائل، فهو يخرج الحديث الشاهد في أول الباب أو في أثنائه ثم يخلل الباب بالآثار والاقوال الثابتة عن الصحابة وأئمة السلف في الموضوع ويأتي بباب اسمه الجامع يروي فيه متفرقات من الباب لا تصلح ان تفرد بترجمة، وقد ختم الكتاب كذلك بباب واسع سماه الجامع وضمنه احاديث في السنن والاخـلاق وأدب السلـوك ونحـو ذلك قيل وهو اول من ابتكر هذا الصنيع في التأليف اي جمع المسائل المتفرقة في باب اسمه الجامع وعلى ما نرى فإن طريقـة الامـام مالـك في تأليفه للموطـأ برغم قدم الزمن هي من احسن الطرق التي ألفت عليهـا كتب السنة فيما بعـد واتبعها معظم المحدثين الى المائة الثالثـة .

---

1) وفيات الاعيان لابن خلكان ج ل ص 17 وفي خصائص المسند للحافظ المديني: كتب أبي عشرة آلاف الف حديث ولم يكتب سوادا في بياض الا قد حفظه . (الخصائص ص 10 طبعة الخانجي) ومعلوم ان المراد ما يشمل طرق الحديث ورواياته والـآثار عن الصحابة وما الى ذلك .

وفي المائة الثالثة نشطت حركة جمع الحديث نشاطاً كبيراً وتناولت مختلف وجوه العمل لتأليفه وتبويبه وتخليصه من الزيف والعلة، فألف البخاري جامعه الذي هو اول كتاب ألف في الصحيح وكذا مسلم صاحب ثاني الصحيحين، وألف بقية أصحاب الكتب الستة كتبهم وهي التي تلقاها المسلمون بالقبول، ويقول السيوطي ان الحديث إذا أخرجه أحد هؤلاء المؤلفين الستة فليروه الانسان مطمئناً اليه(1).

وكان التأليف في هذا العصر على أوضاع مختلفة منها ما بقي محافظاً على وضعه الاول الذي كان اكثر العمل عليه عند بدء التأليف وهو جمع احاديث كل راو على حدة وان اختلفت موضوعاتها وهذا ما يسمى بالمسند وهو النهج الذي تبعه الامام احمد بن حنبل في كتابه العظيم المسمى بمسند احمد، ومنها ما الف على الابواب والمسائل، وهي طريقة مالك في الموطأ، ومنه مايكون عاما شاملا لاحاديث العبادات والعادات والاحكام والحكم والتواريخ والرقائق وغير ذلك وهو المسمى بالجامع ومنه الجامع الصحيح للامام البخاري وغيره. ومنه ما يقتصر على السنن والاحكام كسنن ابي داود، ومنه ما يخص موضوعا بعينه او مسألة واحدة فقط كشعب الايمان للبيهقي والقراءة في الصلاة للبخاري الى غير ذلك.

واستمر هذا النشاط وخلص الى القرون التالية فاتخذ اشكالا وانواعا من العناية بالحديث، سواء من حيث الرواية والجمع، او من حيث الشرح والفهم والتفريع والاستنباط، وفي هذا الامر يقال حدث عن البحر ولا حرج.

---

1) تدريب الراوي ص 65.

وعلى كل حال فقد صحب عملية الجمع والتدوين عملية الانتقاء والاختيار، والجهود التي بذلها العلماء في هذا الصدد، لا يوجد لها نظير عند غير المسلمين، ومن ثم قيل ان الاسناد من خصائص هذه الامة (1)، اي تتبع رواة الحديث واحداً فواحداً، والبحث عن حالهم من الحفظ والضبط والعدالة الى النبي (ص)، قال ابن حزم نقل الثقة حتى يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم مع الاتصال شيء خصص به المسلمون دون جميع الملل، اما مع الارسال والاعضال (2)، فيوجد في اليهود، لكن لا يقربون به من موسى عليه السلام قربنا من نبينا بل يقفون حيث يكون بينهم وبينه اكثر من ثلاثين نفسا، واما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق (3).

ولا نغفل عما في هذه الخصيصى من ميزة للدين الاسلامي لا يشاركه فيها غيره من الاديان، وهي ثبوته بالنص القاطع والرواية الصحيحة، فلا جرم ان يقول عبد الله بن المبارك « الاسناد من الدين، ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء » (4)، وقوله هذا دليل على ان القوم كانوا في تمييزهم للحديث الصحيح من السقيم يتبرءون لدينهم كما كانوا يتحرون المنهج العلمي الصحيح.

---

1) شرح الطرفة لابن عبد القادر الفاسي، الملزمة 11 ص 5 طبع فاس بهامش حاشية ابن عبد السلام كنون.

2) اي عدم الاتصال وسقوط عدد من الرواة في السند، والمرسل في الاصطلاح الحديث الذي يرويه التابعي مرفوعا الى النبي (ص) من غير ذكر الصحابي والمعضل الذي سقط من سنده اثنان فصاعدا من الرواة.

3) حاشية الطرفة لابن عبد السلام كنون ملزمة 11 ص 6 طبع فاس.

4) صحيح مسلم باب في ان الاسناد من الدين ج ل ص 8.

وروي عن عبد الله بن المبارك ايضا انه كان يقول : « بيننا وبين القوم القوائم » (1) اي الاسناد، وهذا يبين طريقتهم العملية في نقد الرجال، فانهم جعلوا قوائم باسماء الرواة ورتبوها بحسب القوة والضعف ترتيبا يكون هو الحكم في قبول الحديث اورده . فاذا لم يعرف حال الراوي ترك الحديث وكذا ان سقط من سنده احد الرواة وان كان في السند ثقات، فقد جاء في مقدمة الصحيح لمسلم بن الحجاج : « وقال محمد (يعني ابن عبد الله بن قهزاد) سمعت ابا اسحاق بن ابراهيم بن عيسى الطالقاني قال : قلت لعبد الله بن المبارك يا ابا عبد الرحمان الحديث الذي جاء ان من البر بعد البر ان تصلي لابويك مع صلاتك، وتصوم لهما مع صومك، فقال عبد الله يا ابا إسحاق عمن هذا ؟ قال : قلت له هذا من حديث شهاب بن خراش، فقال ثقة عمن ؟ قال : قلت عن الحجاج بن دينار قال ثقة عمن ؟ قلت : قال رسول الله (ص) قال : يا ابا اسحاق ان بين الحجاج ابن دينار وبين النبي (ص)، مفاوز تنقطع فيها اعناق المطي، ولكن ليس في الصدقة اختلاف » .

ويحسن بنا ان نورد نبذة في هذا الشأن من مقدمة الامام مسلم صاحب ثاني كتاب في الصحيح، وهي على اقتضابها تقفنا على لطف مسلك القوم في هذه السبل الوعرة، قال رحمه الله :

« ثم إنا مبتدئون في تخريج ما سألت وتأليفه على شريطة سوف اذكرها لك، وهو انا نعمد الى جملة ما اسند في الاخبار عن رسول الله (ص) فنقسمها على ثلاثة اقسام، وثلاث طبقات من الناس على غير تكرار . . . »

---

1) المصدر نفسه .

فأما القسم الاول فانا نتوخى أن نقدم الاخبار التي هي اسلم من العيوب من غيرها وأنقى من ان يكون ناقلوها اهل استقامة في الحديث واتقان لما نقلوا، لم يوجد في روايتهم اختلاف شديد ولا تخليط فاحش، كما قد عثر فيه على كثير من المحدثين وبان ذلك في حديثهم، فإذا نحن تقصينا اخبار هذا الصنف من الناس، اتبعناها اخباراً يقع في اسانيدها بعض من ليس بالموصوف بالحفظ والاتقان كالصنف المقدم قبلهم. على انهم وان كانوا فيما وصفنا دونهم، فان اسم الستر والصدق وتعاطي العلم شملهم كعطاء ابن السائب ويزيد بن ابي زياد وليث بن ابي سليم وأضرابهم من حمال الآثار ونقال الاخبار. فهم وان كانوا بما وصفنا من العلم والستر عند اهل العلم معروفين، فغيرهم من اقرانهم ممن عندهم ما ذكرنا من الاتقان والاستقامة في الرواية يفضلونهم في الحال والمرتبة لان هذا عند اهل العلم درجة رفيعة وخصلة سنية.

ألا ترى انك اذا وازنت هؤلاء الثلاثة الذين سميناهم عطاء ويزيد وليثا بمنصور بن المعتمر وسليمان الاعمش واسمعيل بن ابي خالد في اتقان الحديث والاستقامة فيه وجدتهم مباينين لهم لا يدانونهم - لا شك - عند اهل العلم بالحديث في ذلك للذي استفاض عندهم من صحة حفظ منصور والاعمش واسمعيل واتقانهم لحديثهم. وانهم لم يعرفوا مثل ذلك من عطاء ويزيد وليث، وفي مثل مجرى هؤلاء اذا وازنت بين الاقران كابن عون وايوب السختياني مع عون بن ابي جميلة واشعث الحمراني وهما صاحبا الحسن وابن سيرين، كما ان ابن عون وايوب صاحباهما الا ان البون بينهما وبين هذين بعيد في كمال الفضل وصحة النقل. وان كان عوف واشعث غير مدفوعين عن صدق وامانة عند اهل

العلم، ولكن الحال ما وصفنا من المنزلة عند اهل العلم. وانما مثلنا هؤلاء في التسمية ليكون تمثيلهم سمة يصدر عن فهمها من غبى عليه طريق اهل العلم في ترتيب اهله فيه. فلا يقصر بالرجل العالي القدر عن درجته ولا يرفع متضع القدر في العلم فوق مرتبته. وقد ذكر عن عائشة رضي الله عنها انها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ننزل الناس منازلهم، مع ما نطق به القرآن من قول الله تعالى (وفوق كل ذي علم عليم) (1) .

فعلى ما ذكرنا من الوجوه نؤلف ما سألت من الاخبار عن رسول الله (ص)، فأما ما كان منها عن قوم هم عند اهل الحديث متهمون او عند الاكثر منهم فلسنا نتشاغل بتخريج حديثهم كعبد الله بن مسور ابي جعفر المدائني وعمر بن خالد وعبد القدوس الشامي ومحمد بن سعيد المصلوب وغياث بن ابراهيم وسليمان ابن عمر وأبي داود النخعي واشباههم ممن اتهم بوضع الاحاديث وتوليد الاخبار، وكذلك من الغالب على حديثه المنكر او الغلط، امسكنا ايضاً عن حديثهم .

وعلامة المنكر في حديث المحدث اذا ما عرضت روايته للحديث على رواية غيره من اهل الحفظ والرضى، خالفت روايته روايتهم او لم تكد توافقها، فاذا كان الاغلب من حديثه كذلك، كان مهجور الحديث غير مقبوله ولا مستعمله .

والذي نعرف من مذهبهم في قبول ما يتفرد به المحدث من الحديث ان يكون قد شارك الثقات من اهل العلم والحفظ في بعض ما رووا وأمعن في ذلك على الموافقة لهم، فاذا وجد كذلك ثم زاد بعد ذلك شيئاً ليس عند اصحابه قبلت زيادته .

---

1) صورة يوسف، الآية 76.

فأما من تراه يعمد لمثل الزهرى في جلالته وكثرة اصحابه الحفاظ المتقنين لحديثه وحديث غيره. او لمثل هشام بن عروة وحديثهما عند اهل العلم مبسوط مشترك قد نقل اصحابهما عنهما حديثهما على الاتفاق منهم في اكثره فيروي عنهما او عن احدهما العدد من الحديث مما لا يعرفه احد من اصحابهما وليس ممن قد شاركهم في الصحيح مما عندهم، فغير جائز قبول هذا الضرب من الناس والله اعلم» (1).

فهذا منهج علمي مضبوط لا يقل في دقته وتحقيقه عن مناهج علماء النقد المحدثين ان لم يفقها رأيس هو مما استوحى من مصدر اجنبي ولا مما استورد من بلاد الخارج وانما هو حصيلة الفكر العربي السليم ونتيجة الاجتهاد الاسلامي الخالص. ولم يملك المستشرق جوينبول Juynboll كاتب مادة الحديث في دائرة المعارف الاسلامية نفسه من ان يظهر الاعجاب بالجهد الذي بذله المسلمون في التحري لصحة احاديث نبيهم، على ما له من اغلاط كثيرة في هذه المادة، اذ يقول: «لا يعد الحديث صحيحاً في نظر المسلمين الا اذا تتابعت سلسلة الاسناد من غير انقطاع، وكانت تتألف من افراد يوثق بروايتهم وتحقيق الاسناد جعل علماء المسلمين يقتلون الامر بحثاً، ولم يكتفوا بتحقيق اسماء الرجال واحوالهم لمعرفة الوقت الذي عاشوا فيه واحوال معاشهم، ومكان وجودهم، ومن منهم كان على معرفة شخصية بالآخر، بل فحصوا ايضاً عن قيمة المحدث صدقاً وكذباً ومن مقدار تحريه الدقة والامانة في نقل المتون ليحكموا اي الرواة كان ثقة في روايته» الخ (2).

---

1) صحيح مسلم ج ل ص 3 ـ 4.

2) دائرة المعارف الاسلامية، الترجمة العربية المجلد 7 ص 335.

ونوه الاستاذ ءادم متز في كتابه الحضارة الاسلاميه في القرن الرابع الهجري بالدور العظيم الذي قام به علماء الحديث فى تدوين السنة النبوية وخدمتها فقال : «وقد اعتنى نقاد الحديث منذ اول الامر بمعرفة رجال الحديث وضبط اسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات او ضعفاء، ثم نظروا في الاساس الذي ينبني عليه هذا الحكم اعنى الصفات التي يجب توفرها في المحدث الثقة وهو ما يعرف بالجرح والتعديل . . . وقد ادت بهم حاجتهم الى السند المتصل ان يتجاوزوا البحث في حياة الرواة والحكم عليهم الى عمل تاريخ كامل لهم، وهكذا وجدت تواريخ القرن الثالث الهجري مثل تاريخ البخاري وطبقات ابن سعد» الخ (1) .

وقد اثر هذا المنهج بدقته وضبطه على العقلية العربية فظهر مفعوله في علوم اخرى كاللغة والادب والتاريخ، وابن قتيبة الذي يعد من اوائل نقاد الادب والشعر خاصة بما كتبه في مقدمة كتابه الشعر والشعراء لم يكن الا متأثراً بمعارفة الحديثية والاخبارية ومنهج النقد عند الحديثين الذين هومنهم واليهم . بل اني لا اشك في استفادة ابن خلدون من منهج اهل الحديث واستمداده من طرق نقدهم فيما وضعه من قواعد لعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ. ان الامثلة التي اعطاها مسلم بن الحجاج لمعرفة المنكر من الحديث هي بعينها المقاييس التي طبقها ابن خلدون لتمييز الزائف من الصحيح من اخبار المؤرخين. وهكذا نرى ان علم الحديث يبسط جناحه على الثقافة الاسلامية لا بمتنه وروايته فقط بل وباصطلاحه وما يسمى عند علمائه بعلم الحديث دراية ايضاً.

1) الحضارة الاسلامية لادم متز الترجمة العربية لمحد عبد الهادي أبو ريدة ج 4 ص 319 .

ومن المعلوم ان هذا لم يكن هو القصد الاول من جمع الحديث وتدوينه ونقده، فانه انما جاء عرضا وكان فتحا من فتوحات هذا العلم المبارك الذي استوعب ضروب النشاط الفكري عند المسلمين، وحفزهم من اول يوم الى اقتحام سبل المعرفة وطلب العلم ولو بالصين (1)، فوجدت تلك النهضة العلمية الكبرى التي عمت البلاد الاسلامية من مشرقها الى مغربها، والتي لم تنفصل في اساسها قط عن مدارك القرآن الكريم والحديث الشريف، وهو ما يفسر لنا حرص اعلام الفكر الاسلامي على الاخذ بحظهم من هذا العلم وتمسكهم عبر التاريخ بالمشاركة فيه، حتى ولو كانوا من الفلاسفة والاطباء والفلكيين امثال ابن سينا وابن رشد ونصير الدين الطوسي وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم، بل لقد قيل بتلازم علم الحديث وعلم النبات، لانهما معا مما يدرك بالرحلة ولا يبلغ احد فيهما شأوا إلا بالتنقل في البلاد.

نعم لم يكن هذا هو القصد الاول من حركة تدوين الحديث، وإنما كان هذا القصد هو جمع الحديث خوف ضياعه، فقد جاء فيما كتب به عمر بن عبد العزيز الى ابي بكر بن حزم في الموضوع ان قال له : « انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) فاكتبه فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء » (2).

والواقع انها كانت حركة انقاذ للعلم الاسلامي الذي لم يكن عند القوم غيره . وكانوا انما يعتمدون فيه على الحفظ والاستظهار، فلما اسرع الموت الى رجاله ونقلته، خاف الخليفة

---

1) يروي في هذا المعنى حديث اطلبوا العلم ولو بالصين وهو على اشتهاره لا اصل له .

2) صحيح البخاري ج ل ص 24 .

العادل من جراء ذلك على هذا العلم ما خافه الخليفة الاول على القرآن من الضياع لما استحر القتل في الصحابة وامر بجمع المصحف. فكذلك امر عمر بن عبد العزيز بكتابة الحديث وهو بعد القرآن منتهى علم المسلمين إذ ذاك، فجدوا في الامر واجتهدوا وقاموا بما لم تقم به امة في العمل على حفظ كلام نبيها واخباره واحواله، ودونوا ذلك واقتبسوا منه الحكم والاحكام والمعارف والاسرار، ولم ينظروا اليه قط تلك النظرة الضيقة التي تحصره في حيز الفكر الديني، بل اعتبروه تراثا علميا طائلا درسوه وتعمقوا فيه مدة قرن من الزمن، حتى إذا اتسعت امامهم آفاق المعرفة ونقلت اليهم علوم الاوائل من فلسفة وطبيعة ورياضيات، لم يزدهم ذلك إلا توسعا فيه وتفريعا لاصوله وتأسيساً لقواعده، فانهم لم يقولوا في يوم من الايام بالفصل بين العلم والدين، ولا رجحوا كفة المادة على الروح، لان الدين هو الاسلام، والاسلام والعلم لا يختلفان، ولان المادة كانت دائما وسيلتهم الى السمو بالروح، والوسائل عندهم تعطي حكم المقاصد، فلذلك كانوا في المزاوجة بين المعارف الالهية والعلوم الكونية كالطائر بين جناحين لا يميل مع احدهما إلا كان مهدداً بالوقوع.

وهكذا كان عملهم في تدوين الحديث مبادرة علمية بالمعنى العام الذي يشمل علوم الحياة بأجمعها، مما وصل اليه اجتهادهم ووعته عقولهم، ولا يختص دينا ولا علما كما قلنا، حتى بدأ عهد الترجمة ونشأت تلك النهضة العلمية الكبرى التي كان علم الحديث من روادها الداعين اليها والمشجعين عليها، فتميزت العلوم حينئذ، وسار كل في طريقه من غير تقاطع ولا تدابر، ولا تبجح جهة، بأن ما معها هو العلم دون سواه، بل ان الاعتراف

المتبادل وروح التعاون بين الفكر الفلسفي والديني، كانا هما التقليد المتبع الذي ادى الى وجود فلسفة اسلامية متميزة عن الفلسفة العامة، هي (الرشدية) التي اثبتت لاول مرة في تاريخ الفكر الانساني عدم تعارض العلم والدين، على ما نجده عند صاحبها ابي الوليد بن رشد في كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال وغيره من كتبه الفلسفية، والرشدية هي التي تولدت عنها الميمونية نسبة الى موسى بن ميمون الحكيم الاسرائيلي الذي اهتبلها للاحتجاج لليهودية. ثم تأدت من بعد الى توماس الاكويني، وهو من اكبر فلاسفة القرون الوسطى ورجال الدين في الغرب، فوجد فيها اعظم سند لدعم الايمان المسيحي من طريق العلم، ولا يفهم من هذا ان الحياة الدينية المحض، وما يتعلق بها من الحديث، لم تحظ بعناية خاصة من سلف الامة في حركة لتدوين، ولم تكن حافزاً لهم على ما قاموا به في هذا الشأن من عمل جبار، كلا فاننا إنما عنينا بابراز الناحية العلمية، وما كان لها من السيطرة على المسلمين في تلك الحركة، لانها كثيراً ما تخفى على الباحثين، اولا يعيرونها الاهتمام اللازم، وإلا فان الحديث المتعلق بالواجبات والسنن والشعائر الدينية على العموم. كان من اول ما اعتنى المسلمون بحفظه وروايته، سواء في ذلك الصحابة والتابعون فمن بعدهم، بل ان من الصحابة من تعاطى كتابته كعبد الله بن عمرو بن العاص، وذلك باذن من النبي (ص)، فسبق عهد التدوين بزهاء قرن كامل . وفي هذا العهد ايضا كان الباعث الديني من اعظم ما حمل أئمة الحديث وحفاظه على جمعه وكتابته، الا ترى ان منهم من خص بعض كتبه بالمسائل والقضايا الدينية، وقد ألمعنا الى ذلك فيما سبق، ككتاب القراءة في الصلاة للبخاري، وكتاب

شعب الايمان للبيهقي، وكتاب السنن لابي داود، وان كان هذا جامعا بين احكام العبادات والمعاملات .

ولم يكن ليسع المسلمين غير ذلك، وهم يقرأون في الكتاب العزيز « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (1)، ويسمعونه (ص) يقول : « الا اني اوتيت القرآن ومثله معه » (2)، فالقرآن وان كان كتاب عقيدة وشريعة معا، وذلك مما امتاز به على الكتب السماوية الاخرى، الا ان كثيراً من الاحكام لم تفصل فيه تفصيلا، حيث ان مهمته الاولى كانت وما تزال هي ان يحبب الايمان الى الناس ويزينه في قلوبهم ويكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان، وما زاد على ذلك فانما هو مما يثبت به الذين آمنوا ويشق لهم الطريق الى المعرفة بالله وعبادته على نحو ما كان الرسول (ص) يفعل كما ترشد اليه الآية الكريمة « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » (3) . لهذا شعر الصحابة منذ فجر الاسلام ومن اتى بعدهم من المومنين بالحاجة الى السنة التي تبين لهم ما اجمل في القرآن وما لم يذكر فيه تفصيلا من احكام العبادات والمعاملات.

«انظر الى الايمان جاء في القرآن، الأمر به والزام كل واحد ان يملأ منه قلبه، ثم بينته السنة بقوله (ص) الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره» (4)، كذلك الاسلام والاحسان. وانظر الى الصلاة عماد الدين، اوجبها القرآن

---

1) سورة النحل الآية 44 .

2) سنن ابي داود ج ث ص 261 ومسند احمد ج 4 ص 131 .

3) سورة آل عمران الآية 31 .

4) البخاري ج ل ص 12 .

من غير بيان، وبينت السنة عدد الصلوات والركعات وكيفيتها وشروطها واصلاح ما يقع فيه الخلل منها، ووضحت اوقاتها وكيف العمل في فوائتها، وما ذكر في القرآن إلا ما هو اجمال من ذلك كقوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق » الآية (1) . ففي القرآن بيان شرط وهو الطهارة المائية ثم الترابية . واشار الى شرط ستر العورة بقوله : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » (2)، والى شرط استقبال القبلة بقوله : « فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (3)، ولكن هناك تفاصيل بينتها السنة، ثم اشار القرآن الى اوقاتها بقوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون » (4)، ولكن السنة بينت الاوقات بالبيان الشافي بحديث بريدة وحديث ابن عمرو (5) في الصحيح وغيرهما، واشار القرآن الى كيفيتها بقوله : « اركعوا واسجدوا » (6)، وقوله : « وقوموا لله قانتين » (7)، ولكن السنة هي التي استوفت فقال (ص) : صلوا كما رأيتموني اصلي (8)، وروى لنا ابو هريرة ووائل بن حجر ومالك بن الحويرث وابو حميد الساعدي وغيرهم كيفية

1) المائدة 6 .
2) الاعراف 31 .
3) البقرة 144 .
4) الروم 17 ـ 18 .
5) ينظر حديثا بريدة وابن عمرو برواياتهما المختلفة في مسلم ج ل ص 231.
6) الحج 76 .
7) البقرة 238 .
8) البخاري ج ل ص 85 .

صلاته عليه السلام (1)، وعلمنا منها ما هو واجب وما لا يجب.

وهكذا الزكاة اشار القرآن الى وجوبها بقوله : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (2)، ولكن من اين علم القدر الواجب ؟ علم من السنة، قال عليه السلام فيما سقت العيون او كان عثريا (3) العشر، وما سقى بالنضح نصف العشر (4)، وقال : « وفي الركاز الخمس » (5)، وبينت السنة قدر النصاب، قال عليه السلام : « ليس فيما دون خمسة اوسق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود في الابل صدقة » (6) .

وهكذا الصوم اوجب الله علينا في القرآن صوم شهر رمضان، وبينت السنة ان المراد الشهر القمري الذي يكون ثلاثين ويكون تسعة وعشرين، وامرنا ان نصوم لرؤية الهلال ونفطر لرؤيته، وان من افطر عامداً لغير عذر تجب عليه الكفارة الى غير ذلك.

وهكذا الحج اوجب الله في القرآن الحج على من استطاع، وبين اركانه فأشار الى الاحرام بقوله تعالى : « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله » الى آخر الآية (7)، والى وقوف عرفة « فإذا أفضتم من عرفات » (8)، وبين السعي والطواف بقوله:

---

1) احاديث ابي هريرة ومن ذكر معه في وصف الصلاة تجدها متفرقة في ابواب الصلاة من صحيح البخاري ومسلم وفي ابي داود والجماعة .

2) المعارج 24 ـ 25 .

3) بفتحتين اي ما يشرب بعروقه لانه عثر على الماء.

4) البخاري ج ل ص 190 .

5) البخاري ج ل ص 192 والركاز دفن الجاهلي .

6) البخاري ج 4 ص 190 .

7) البقرة 196 .

8) البقرة 198 .

« إن الصفا والمروة من شعائر الله » (1)، وبقوله : « وطهر بيتي للطائفين والقائمين » (2)، وبينت السنة كيفية الاحرام وممنوعاته وحدود عرفة ووقت الوقوف فيه وكيفية السعي والطواف وعدد الاشواط الى غير ذلك . وقد اجمله عليه السلام بقوله : « خذوا عني مناسككم » (3)، وبينت الاحاديث النبوية التي رواها الصحابة الذين عاينوا حجه تفاصيل ذلك كإبن عباس وابن عمرو وغيرهما (4) .

فهذه بعض الاحكام مما يتعلق بالقواعد الخمس فقط، إنما استفيدت من السنة وإن ذكرت اصولها في القرآن، ولكن ذلك لا يغني عن التفاصيل التي اشرنا اليها ومثلها ما يتعلق بأبواب المعاملات وهو كثير جداً . فلا جرم ان السنة قولية كانت او فعلية عليها مدار مناط التشريع بعد القرآن، وهي اما مبينة له كما رأينا وذلك هو الغالب، واما مستقلة بالتشريع كما في زكاة الفطر وصلاة الوتر من احكام العبادات، وكما في الحكم بالشاهد واليمين، وميراث الجدة من احكام المعاملات، وقد قال الله عز وجل فيما هو من هذا القبيل « وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا » (5) .

---

1) البقرة 158 .

2) الحج 27 .

3) مسلم ج ث ص 592 .

4) حديثهما مقطع في البخاري في ابواب الحج واطول حديث واوعبه في وصف حجه (ص) هو حديث جابر وتنظر رواياته في مسلم .

5) سورة الحشر الآية 7 .

وبهذا نعرف قيمة الحديث بالنسبة الى الدين، كما عرفناها بالنسبة الى العلم فالعجب، ممن يثير الشبهات حول حجيته ورجاله وسنده، وقد رأينا فيما يرجع الى السند كيف ان عمل المحدثين في التحري لـه والتثبت منـه واخضاعه للنقـد العلمي التحليلـي، كان مثار الاعجاب حتى من الاجانب عن الاسلام، واتخذه علماء آخرون من غير المحدثين كالمؤرخين والادباء ميزانا لنقد الاخبار وحياة المجتمع، فما بعد هذه الدقة في وزن الحديث وتمييزه غاية تدرك، والذي لا يرضيه الاغبياء في هذا الامر لا يرضيه شيء.

وأما حجية الحديث فلسنا بقائلين فيها شيئا مما كان يقوله بعض المتنطعين من انها ظنية الثبوت وخبر احاد، فان المنكرين اليوم ليسوا من ذلك بسبيل، وانما هم ممن تحكمت فيهم الاهواء وقالوا بالتقليد من غير علم ولا هدى، فنسألهم عما ذكرنا، من الاحكام التي لم تستفد إلا من السنة، وهي مما لا نزاع فيه بين المسلمين كعدد ركعات الصلاة والصلوات الواجبة والمندوبة، والنصاب في الزكاة والقدر المخرج منه وما الى ذلك، اهي من الدين ام لا ؟ فاذا قالـوا هي من الدين قطعا فقد اثبتـوا حجية الحديث فيها، لانها لم تشرع إلا عن طريقه ويلزمهم ان يقولـوا بحجيته في غيرها، وان قالوا انها ليست من الدين فلا شك انهم يتكلمون عن دين آخر غير دين الاسلام. وليس الحديث حجة إلا عند المسلمين الذين يصلون ويصومون على مـا ثبت عندهم من قول الرسول (ص) وفعله في ذلك، وهو السنة، وهي الحديث المروي بطريق التواتر او خبر الآحاد صحيحا او حسنا.

ولعلنا وقد بينا قيمة الحديث العلمية والدينية، ورفعنا من شأن رجاله بما هو معقول ومقبول، وليس من قبيل المناقب ولا الكرامات، يصح لنا ان ننبـه على الاحاديث الموضوعة والضعيفة

جداً ونحذر منها، فان اكثرها مما يجني على سمعة الاسلام ويزيف حقيقته، وهي في الواقع التي تجعل بعض من لا علم له من ضعفاء الايمان يتشككون في الاحاديث كلها ويردونها ولا يقبلون الاحتجاج بها، وهو خطأ واضح لان وجود الزيف في بعض النقود كلها، وقد وقع الانتحال في النصوص الادبية من شعر ونثر، ولم يجعل ذلك احداً يرفض الادب كله، ويقول انه منتحل لا يصح نسبته الى اهله.

وقد ألف العلماء في الحديث الموضوع كتبا قيمة تبينه بأعيانه فضلا عما وضعوه من القواعد لمعرفة الوضع في الحديث ومن تلك الكتب موضوعات ابن الجوزي واللآلي المصنوعة للسيوطي والدرر المنتثرة له وتمييز الطيب من الخبيث لابن الديبع وموضوعات على القاريء المعروف بابن سلطان والغماز على اللماز للسيد السمهردي وما ذكره المجد الفيروزيادي في آخر كتابه سفر السعادة ونظمه الشمس المقدسي في أرجوزة طويلة مفيدة، والفوائد المجموعة للشوكاني، وأسنى المطالب لمحمد الحوت وهذه الكتب كلها مطبوعة بمتناول الجميع على أن ثم أحاديث لم تنزل لدرجة الوضع وانما دخل سندها أو متنها علة قد لا تقدح في صحتها، ولكن معرفة ذلك مما يخفى الا على جهابة النقاد. وقد ألف العلماء في هذه العلل أيضاً تآليف مفيدة جداً ومما هو مطبوع منها كتاب علل الحديث لابن أبي حاتم أورد فيه زهاء ثلاثة آلاف حديث معلول مبيناً وجه علته بما لا مزيد عليه في الاتقان.

وهناك نوع من الحديث الذي يبدو لاول وهلة كأنه متناقض مع ما هو معروف من النصوص القرآنية أو الاحاديث الاخرى، فيسارع المرء الى انكاره وهو المسمى بمختلف الحديث وهذا

النوع قد يقع الناس منه في مزالق شنيعة ولذلك لا ينبغي الاستعجال بالحكم عليه الا بعد الدراسة المستأنية والاحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، ومن أحسن الكتب الموضوعة فيه وأجمعها كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة وهو مطبوع يحسن الرجوع اليه للتمقه في الحديث وحصول الطمأنينة له.

وبعد، فإن أحسن الحديث كتاب الله عز وجل، وأفضل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم (1).

وما شرب الايمان الا فؤاد من بأخبار خير الخلق قد ملأ الاذنا (2)

وما أحسن ما قال ابو حيان التوحيدي في الامتاع والموانسة، وقد ذكر ان الخلافة ما آلت الى بني هاشم حتى استحالت أعجمية كسروية:

«هذا الربيع وهو حاجب المنصور يضرب من شمت الخليفة عند العطسة، فيشكى ذلك الى ابي جعفر المنصور، فيقول اصاب الرجل السنة واخطأ الادب وهذا هو الجهل كأنه لا يعلم ان السنة اشرف من الادب، بل الادب كله في السنة، وهي الجامعة للادب النبوي والامر الالهي، ولكن لما غلبت عليهم العزة ودخلت النعرة في آنافهم وظهرت الخنزوانة بينهم، سموا آيين العجم ادبا وقدموه على السنة التي هي ثمرة النبوة» (3).

1) البخاري كتاب الادب، باب الهدى الصالح ج 4 ص 48.
2) انشده في أقرب المسالك على الوطأ.
3) الامتاع والموانسة ج 2 ص 76.

الدين والشباب

يضع هذا العنوان بين ايدينا مشكلا شائكا وخطيراً ومتشعب النواحي، بحيث لا يمكن ان يحيط به حديث يلقى في جلسة مهما تطل .

اما كونه شائكا فلأن كثيراً من الشباب اصبح قليل المبالاة بالدين، فاذا حدثته عنه اعتبر حديثك تعريضا به وتدخلا في شؤونه الخاصة، فاستنكف واستكبر، واعرض عنك وربما واجهك بما تكره، هذا ان لم يكن ممن نبذ الدين بالكلية، وصار يتباهى بالالحاد وإلا فانه يثور وتقوم قيامته، ولا تسل حينئذ عن تهجماته العنيفة وتقولاته الشنيعة .

واما كونه خطيراً فلأن الامر يتعلق بمستقبل الامة اساسا . إن اكثر من نصف عدد المسلمين يتكون من الشباب ومن النشيء الطالع، فاذا تمادى الحال على ما هو عليه من تقلص ظل الدين بين الشباب، فاننا بعد جيل او جيلين، لا نجد في بلاد الاسلام من يقول ربي الله .

واما كونه متشعب النواحي، فلأن استيفاء الكلام فيه يقتضينا ان نتعرض للمراد بالشباب، لان هذا اللفظ اصبح مقولة تطلق على من بلغوا طور الشباب حقيقة، ومن لم يبلغوه بعد من الايفاع، ومن تجاوزوه من الكهول الذين شارفوا الشيخوخة، فإن الرجل

ما دام غير ملتح حليقا انيقا، فانه يحشر نفسه في الشباب ويعتبره الناس كذلك، ومعنى هذا ان نزق الشباب، صار ملازما الشيوخ ايضا او من في حكمهم .

كذلك يقتضينا استيفاء الكلام في هذا المشكل، ان نتعرض للوضع الديني الذي يوجد عليه هؤلاء الاصناف كلهم، وللمراد بالدين هنا، هل العقيدة، او العمل، او هما معا ؟ وكل ذلك مما يتشعب فيه القول، ويفضي بنا الى المساس بشعور الجمهور من الناس الذين لا نريد لهم إلا الخير، ولا نفكر إلا في صلاح حالهم .

إذن فلنقتصر على ما هو ضروري في الموضوع، وعلى ما هو ايجابي لا تشنيع فيه، وهو عرض المشكل وطريقة معالجته، ولنفرض - وهو فرض محتمل جداً - ان مفهوم كل من كلمتي الدين والشباب معلوم لدينا، ومقرر بالبديهة لا يحتاج الى شرح او بيان، فتبقى معنا هذه (الواو) التي الفت بين الكلمتين وجمعتهما في نسق واحد، لما قلنا الشباب (و) الدين، فوضع المشكل، وانطبع في اذهاننا بصوره وابعاده المعروفة، فوجب حينئذ صرف الكلام اليها، اي الى الموضوع الذي يتكون من المتعاطفين كليهما على الجمع لا على الافراد .

ولعل من اهم ما تجب الاشارة اليه اولا ان مشكل الشباب على العموم، هو اليوم مشكل عالمي لا يختص بالشباب المسلم ولا يقتصر على موقفه من الدين فالثورة التي أضرمها الشباب الفرنسي ربيع سنة 1968 وكادت تطيح بنظام الحكم في فرنسا، كان لها صدى في جميع أنحاء العالم، وتجاوب معها شباب أكثر من قطر غربي فضلا عن بعض الاقطار الشرقيه. والملاحظ أن انبعاثها كان من الاوساط الجامعية والطلاب في المعاهد العليا، ثم عمت المراهقين من الشباب

الذين كانوا يعربون بضراوة عن تمردهم وسخطهم وخروجهم على كل الاعراف والمواضعات الخلقية والاجتماعية .

ومن المألوف الان في كل البلاد رؤية الافواج من الشباب الذين اتخذوا التبذل واسدال الشعور والهندام المثير شعاراً اهم «اما جماعة الهيبيين» الذين تخطوا هذه المرحلة، فانهم قد انغمسوا في القذارة الحسية والمعنوية، واقبلوا على تعاطي المخدرات، وممارسة أنواع الانحراف، متحدين أولياءهم ومجتمعهم ومعبرين بشذوذهم واستهتارهم عن احتقار كل المبادىء والقيم الانسانية.

فنقطة الانطلاق عند شباب العصر في تحركاته وسلوكه هي الرفض كما رأينا لكل المسلمات والتقاليد والاداب العامة التي وجدوا عليها أباءهم وبيئاتهم، والتي هي أساس المدنية الحديثة، لا للدين فقط كما هو حال غالب شبابنا .

ان الدين عند شباب العصر نزعة عدمية نشأ على رفضها مسبقا، لان أولياءه لم يكونوا يعتبرون الدين شيئاً عملياً، وقد نفضوا أيديهم منه لما كانوا شبابا فمهدوا بذلك لما يقوم به أبناؤهم اليوم من رفض تام لكل ما هو طيب وصالح .

وهذا ما نخشاه على مستقبل شباب الاسلام، فان الالحاد الذي ينشر اليوم بين شبابنا سيكون مدرجة لوقوع المجتمع الاسلامي في مآس وانتكاسات الله أعلم بعواقبها، وذلك حينما تنشأ النابتة الجديدة في أحضان هذا الشباب ولا يكون لها رادع من دين وخلق يحجزها عن التردي في حافرة الجاهلية الاولى.

على أن من الحق أن نعترف أن الشباب كان دائماً موضع الملاحظة في كل المجتمعات وعبر العصور، لاندفاعه مع شرة الفتوة وتحكم الغريزة حتى قال الشاعر :

فان يك عامر قد قال جهلا ... فان مطية الجهل الشباب

وعرف الشباب من قديم برقه الدين، واحتمل ذلك منه علماً بأنه سوف يراجع بصيرته ويصلح حاله حين يبلغ أشده ويستكمل رجولته. ألا ترى الحديث الشريف كيف عد الشاب الذي نشأ في عبادة الله من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لاظل الا ظله (1).

وما ذلك الا لندرة هذا الشاب في الشباب وخروجه على المعتاد من جنسه .

وجاء فى حديث آخر: عجب ربك من شاب ليس له صبوة (2) وهو حديث يؤكد المعنى الذي أشرنا اليه من ان الشباب يغلب عليه اتباع الهوى، ولا يسلك سبيل الرشد الا بعد حين .

نعم هذا هو حال الشباب من زمان، وموقفه من التدين في الماضي، فلسنا نطمع أن يكون أحسن حالا ولا أكثر تدينا في الوقت الحاضر، وقد هاجمته هذه الافكار والمذاهب الا لحادية من كل جهة، وحاصرته داخل المعهد والكلية باسم العلم والبحث الحر، وجاءت التقنية الحديثة بعجائبها ومكتشفاتها، فكانت ضغثا على ابالة، زعزعت عقيدته وغيرت مفاهيمه، ولم تورثه غير قلق النفس وبلبلة الفكر وخواء الروح .

انها ظاهرة جديدة وغير طبيعية، فاذا كان ما وصفناه من حاله في السابق ضربة لازب لجموح الهوى به في فورة النضج، حتى ان الشرع ليعذره في بعض الاحيان فالامر بخلاف ذلك في هذه الظاهرة التي تعتبر مرضا نفسيا وداء اجتماعيا تفشى فى أوساط الشباب بالاهمال وعدم العلاج .

---

(1) الحديث مروى في الصيحين وغيرهما .

(2) خرجه أحمد وأبو يعلى واسناده حسن قاله ابن الديبع.

نحن اذن أمام مسؤولية عظيمة يتحمل كبرها رجال التربية والتعليم الذين يجب أن يخططوا لتكوين الشخصية الاسلامية في ظلال العلم والحضارة. ولا يصح مطلقا أن نلوم الشباب وحده، ونتحامل عليه لمروقه من الدين قبل أن نقوم بواجبنا نحوه، فعلينا أن نأخذ الكتاب بقوة قبل أن يفلت الزمام من يدنا.

ان الاسلام هو الذي كيف الحضارة بالجمع بين العلم والدين لأول مرة في التاريخ وبفضله بقي الاعتقاد بوجود الاله حتى في المجتمعات غير الاسلامية، ولنذكر ما فعله ابن رشد في التوفيق بين الحكمة والشريعة، وأثر ذلك في موسى بن ميمون ثم في توماس الاكويني، فكيف يجوز أن يتعرض شباب الاسلام لهذه الهزات النفسية، ويصيبه من ظمأ الروح ما يجعله ينغمر في الحياة المادية الصرف وقد طب لـه فلاسفته ومفكروه قديما بما حفظ عليه ايمانه ويقينه مآت السنين . .

فالتقصير منا لا محالة، والنتيجة ستكون اسوأ كلما تباطأنا في درء الخطرو استئصال الداء قبل استفحاله.

لقد بقيت الفلسفة الاسلامية الى وقت قريب، تدرس في معاهدنا بجنب الفلسفة القديمة، منذ أن غزت هذه الاخيرة عالم الاسلام في حركة النقل والترجمة التي قامت في القرن الثاني الهجري، وكان ان تصدي لها علماؤنا بالرد على ما فيها من زيغ والحاد، وأبلوا في ذلك البلاء الحسن، حتى ان منهم من سمى كتاباً له في نقد بعض المذاهب الباطلة، بهذا الاسم المثير «اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية» (1) فالقوم كانوا جادين في حماية عقيدتهم، وقد عملوا على سد جميع منافذ الشك

1) الكتاب لشيخ الاسلام ابن القيم.

والحيرة التي أحدثها تدارس الفلسفة القديمة في نفوس أبنائهم، بوضع فلسفة اسلامية معادلة، هي مـا يسمى بعلم الكلام وعلم التوحيد، مع علم الاخلاق المسمى بالتصوف .

ولئن حدث هذا والفلسفة ضيقة المذاهب محدودة المطالب فبالاحرى ان يحدث ما هو أعظم منه، وقد اتسعت المباحث الفلسفية اتساعاً عظيماً، ووجدت مذاهب فكرية جديدة أكثرها ذو نزعة مادية خالصة، الا أننا - ويا للاسف - لم نفعل شيئاً في هذا الصدد، والمعاهد والكليات العلمية الحديثة التي انتشرت في بلادنا انتشاراً كبيراً تلقن أبناءنا نظريات وآراء في الوجود وطبيعة الكون وفلسفة الحياة، جعلت فريقاً منهم يؤله العلم وفريقاً آخر لا يومن بشيء وأضعفت ايمانهم بالمثل والاخلاق الاسلامية فصاروا يسخرون منها، وفي أحسن الاحوال ينتقدونها، ويسمونها رجعية وتخلفا وعدم تفتح على الحياة .

والانصاف يحملنا على القول ان الدعاة المصلحين لم يدخروا وسعا في مواجهة هذه التحديات، ونقض جميع المطاعن التي توجه لعقيدة الاسلام شريعته ومثله العليا، بحيث يتألف مما كتبوه في ذلك رصيد حافل، يثري الفكر الاسلامي الحديث، ويجعله في وضعية قوية، قادراً على الاخذ والعطاء، مستعصيا على الانتكاس والارتكاس. لكننا رسميا ما زلنا لم ندخل الاسلام ودراسته كفلسفة ودستور ومنهاج الحياة في برامجنا التعليمية، وما زلنا ندفع بأبنائنا الى المداوس الاجنبية، ونجلسهم بين أيدي معلمين غير مسلمين، لا يؤتمنون على عقيدة غير عقيدتهم ان كانوا من المعتقدين، فكيف اذا كانوا وهو الغالب من الملحدين، هذا من غير ان نسلحهم بسلاح التربية الدينية ونلقنهم اصول العقيدة الاسلامية،

وتاريخ سلفهم العريق في العلم والحضارة، فلا جرم اننا نجني عليهم جناية كبرى، ونهيؤهم للانحراف الذي نشكو منه الآن.

هذا في التعليم العمومي، وهو الذي يستوعب الملايين من التلاميذ والطلاب وفي التعليم الديني على قلة رواده، وتناقص عددهم يوما بعد يوم، نجد السياسة المتبعة فيه، هي حشد المسائل والمعلومات التي يضيق بها الذهن وتقصر عنها المدارك، وذلك منذ المرحلة الاولى، فالصبي الذي ما زال لم يبلغ الحلم، يلقن احكام الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج بكل تفصيل، وكأنه سيصير من يومه إماما في مسجد الحي او مفتيا في البلد، فمن نواقض الوضوء التي تنيف على الستة عشر، كالبول والريح والسلس والمذي واللمس والتقبيل وغير ذلك، الى احكام السهو التي قل ان يضبطها المتفقهون الماهرون، الى النصاب في الزكاة والاصناف المزكاة، والتاجر المدير والتاجر المحتكر، وزكاة الدين وما الى ذلك، مما يسبب لكثير من صغارنا نفوراً من هذا الذي نحسب انه هو الدين كله، في الوقت الذي يجب ان نحبب اليهم الايمان ونزينه في قلوبهم، وننمي شعورهم الديني باطلاعهم على محاسن الاسلام وخصاله الحميدة، مكتفين في احكام العبادة بالضرورة الذي تصح به الصلاة، كما كان النبي (ص) يكتفي من الكافر حين يسلم بتعليمه كيفية الصلاة، واعلامه ببقية قواعد الاسلام من غير تفصيل، والحال ان هذا مكلف بالغ قريب العهد بالجاهلية. وليس صغارنا كذلك.

واما الطلبة في هذا التعليم، فان ما يفرض عليهم تحصيله من علوم وفنون واصول وفروع يكاد يفوق الحصر، ناهيكم ان كتابا واحداً مما يدرسونه في الفقه، يحوي بقولهم مائة الف

مسألة منطوقا، ومثلها مفهوما، وهو مع ذلك يسمى مختصراً (1) . لكن الذي لا يدرسونه هو روح الاسلام ورسالته العامة للبشر، وما اتى به من اصلاح سياسي واجتماعي، وما ينتظر ان يقوم به من دور في انقاذ البشرية مما تتخبط فيه من ظلم وظلام، وكذلك فإن خريجي هذا التعليم هم انفسهم لا يؤمنون به، وقل بينهم من يقوم بعمل نافع، إلا إذا كان ممن كون نفسه واتم تحصيله بمحض ارادته واجتهاده .

هذا موقف يجب ان نتدبره ونفكر فيه جيداً، متذكرين كلمة حكيمة للامام مالك يقول فيها « لن يصلح آخر هذه الامة إلا بما صلح به اولها» وهي كلمة مر عليها اثنا عشر قرنا وما يزال معناها صحيحا. فاذا أردنا الخير لابنائنا واذا أردنا أن نطمئن على مستقبل الاسلام، واذا أردنا أن ننقذ شبابنا من الحيرة والضلال. فلنجعل مادة الاسلام بالمعنى الذي ذكرناه، مادة أساسية في جميع برامجنا التعليمية من الابتدائي الى العالي، ولنقلع عن تقليد الغرب في اللايكية والعلمانية وعبادة المادة، ولنجعل حدا لترضى الاقليات الدينية التي طالما سارعنا في هواها حتى أصبح لها علينا شبه وصاية لا نعمل الا بمقتضاها .

ومع ذلك فالامر بالنسبة الى أغلبية الشباب الذين قطعوا مراحل التعليم الاولى في المدارس العمومية التي ليس بها تعليم ديني، سيكون عملية انقاذ ليس الا، ونتيجتها لن تكون مرضية اطلاقا، فالمثل يقول « شب عمرو عن الطوق » وكذلك الشاب الذي كون لنفسه رأيا وأصبح يعتد بشخصيته ولم يبق خاضعا

---

1) هو مختصر الشيخ خليل بن اسحق الجندي المصري المشهور في المذهب المالكي.

للتوجيه حتى من أسرته، يصعب اقناعه، وقلما يجدي الحوار معه، فأحرى الزامه والتأثير عليه.

ومن ثم فان الخطة العملية والتي ينتظر أن يكون لها نتيجة ايجابية في توجيه شبابنا توجيها اسلاميا صحيحا، هي التي تبدأ من الفصول الاولى في التعليم الابتدائي، وتتدرج من البسيط الى المركب، ومن التلقين والايحاء الى التثقيف وحل المشاكل، في المراحل التعليمية التالية، حتى ينشأ الشاب على هدى وبصيرة من أمر دينه، وفي مناعة من التيارات الفكرية المضادة التي تهب عليه من هنا وهناك.

وأذكر للاعتبار فقط، أنني كنت في اسبانيا ذات مرة، وصادف وجودي في غرناطة يوم الاثنين. وهو يوم تعطل فيه الصحافة الاسبانية، ولا يصدر فيه الا جريدة واحدة تسمى صحيفة الاثنين، فأخذت هذه الصحيفة لانظر فيها أنباء اليوم، فاذا بداخلها ملحق صغير للاطفال، يكاد يستغرقه كله مقال رئيسي بعنوان (محمد النبي المزيف) وقد كتب بلغة بسيطة جدا، ولكنها مليئة بالهزء والسخرية، وبنى على فكرة اقتباس القرءان من التوراة والانجيل اقتباسا مشوها، لان صاحبه كما يقول المقال، كان أميا لا يعرف كتابة ولا قراءة، وانما تلقف ما ضمنه في كتابه من أفواه اليهود الذين كانوا يسكنون جزيرة العرب، وبعض الرهبان الذين لقيهم أثناء رحلته الى الشام.

وهكذا يعمل المسيحيون على تنشئة أبنائهم منذ الصغر على عقيدتهم وترابط اسبانيا الكاثوليكية في حصن غرناطة مطاردة الاسلام حتى في نشرات الاطفال، بعد أن اجلت أتباعه عن هذا الحصن بعدة قرون.

وصدق رسول الله (ص) حين قال « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه » (1).

وإذا كان ما ذكرته لحد الآن انما يتعلق برجال التربية والتعليم، والمشرفين على وضع البرامج والمناهج في وزاراتنا المختصة، فليس معنى ذلك انهم المسؤولون وحدهم عن جنوح الشباب وضعف شعوره الديني، فإن على رجال السلطة من المسؤولية في ذلك قسطا وافراً إذا لم يقوموا به ذهبت جميع جهود المربين والمعلمين سدى، وقديما قيل : « لما يزع الله بالسلطان اكثر مما يزع بالقرآن ».

وقد اشرت فيما مضى الى ما للاقليات الدينية في بعض البلاد الاسلامية من التأثير في هذا المجال، واحب ان اوضح هذه النقطة التي اصاب العالم الاسلامي منها خطر كبير، ذلك ان هذه الاقليات وان كانت تتمتع بجميع الحقوق، وبما ليس لاقلية اخرى في اي بلد غير اسلامي من الاعتبار، فإنها لم تقنع إلا بالهيمنة على اجهزة الحكم والقوانين الدستورية، وبذلك سيطرت سيطرة تامة على الدول التي تنتمي إليها، ناهيكم بأن بعض هذه الدول كان في دستورها ان دين الدولة هو الاسلام، فحذفت هذا البند من الدستور ترضيا للاقلية المتحكمة، وهو امر لا نظير له في انقياد الاكثرية لحكم الاقلية . ولا نذكر هنا الاقليات الاسلامية المهمة في الهند والصين والاتحاد السوفياتي، وإنما نذكر الاقلية الكاثوليكية في المملكة المتحدة البريطانية، وهي اقلية تبلغ بضعة ملايين، فهل دار بخلدها قط ان تتحكم في الاكثرية البروتستانية، مثل هذا التحكم ؟، وتعارض مثلا الملك او الملكة

1) الحديث رواه الترمذي وغيره .

في القسم الذي يؤديه على حماية الكنيسة الانجيلية والاخلاص لها عند ارتقاء العرش. وليقل في الاقليات المماثلة بألمانيا وهولاندا وسويسرا وغيرها ما قيل في الاقلية البريطانية.

إن اسراف السياسيين عندنا في ترضي الاقليات الدينية جاوز الحدود حتى ادى الى التنازل عن حق الاكثرية في حماية دينها والتظاهر به، بل ادى الى تعطيل احكامه بالمرة. فإن عدم النص على ان دين الدولة هو الاسلام، استتبع طبقا لمبدأ دستورية القوانين، عدم استمداد القوانين المدنية والجنائية من احكام الشريعة الاسلامية، وبذلك اصبحت الاحكام الشرعية معطلة، والمسلمون يحكمون بالقوانين الاجنبية، وذلك منتهى الظلم، فإنك لو حكمت فرنسا مثلا بقانون إيطاليا او العكس لكنت تظلمهما على ما بينهما من التقارب والتشابه، فكيف ببلاد الاسلام التي تقع في الشرق وتدين بدين غير دين الغرب، واحوالها الاجتماعية والاقتصادية غير احواله.

ولقد وجد هذا الوضع بحكم التقليد حتى في البلاد الاسلامية التي ليس فيها اقلية دينية اخرى، فانعدم فيها ايضا وازع الشرع، وصار التظاهر بمخالفة الاحكام الشرعية، يقع فيها كما يقع في البلاد ذات الاقليات الدينية غير الاسلامية التي يلتبس فيها المسلم بغيره.

ولا يخفى تأثير هذا الوضع السيء على اخلاق الشباب والمجتمع بعامة، فإن البيئات التي يكون الحكم اجنبيا عنها تتفكك بسرعة، وقد لوحظ فعلا ان ما حل بكيان المجتمع الاسلامي، من تضعضع وانهيار في مدة اربعين سنة فقط، اي فيما بعد الحرب العالمية الاولى، لم يسبق له نظير ولم يكن يتوقعه احد، وذلك من جراء تمركز الحكم الاجنبي في البلاد الاسلامية، في هذه

المدة، فقد تبدد نظام الاسرة الذي كان محاطا بهالة من التقديس، وخرجت المرأة المصونة الى الشارع كاشفة عن محاسنها، متحدية تعاليم القرآن في عدم ابراز زينتها للاجانب، واصبح تعاطي الخمر والانجار فيها شيئا عاديا، وفتحت المواخير المنوعة، والمراقص العامة واندية القمار برخصة من الدولة، وهكذا انقلب المجتمع الاسلامي الذي كان مثالا في التمسك بالفضيلة ومجافاة الرذيلة الى بؤرة من بؤر البغي والفساد، وذلك بين عشية وضحاها، والسر هو ان القوانين التي اصبحت سائدة فيه، لا تعاقب على هذه الموبقات، وليس فيها نص على استنكارها وان كانت من اكبر المنكرات في شريعة الاسلام.

إننا لا يمكن ان نصلح ما بنا ونعود بشبابنا الى سلوك الجادة إلا بالرجوع الى شريعتنا الغراء، لستفتيها ونستطب بها لمجتمعنا، وليس ذلك بالامر العسير إذا صممنا عزمنا واجمعنا امرنا، وانتزعنا قيادتنا من يد الثلة التي لا تالوننا خبالا، ولن ترضى عنا حتى نتبع ملتها.

هذه واحدة، واخرى ليست اقل منها خطراً، وان كنت لا احمل مسؤوليتها احداً، فقد كنا جميعا من التحجير والضغط على الافكار، نطالب بها ونراها وسيلة الخلاص، إلا اننا على العادة اسرفنا فيها، وفتحنا ابوابها على المصاريع، ولا سيما فيما يتعلق بأمر الدين والاخلاق، وسائر مقوماتنا الروحية والمعنوية، وتلك هي هذه الحريات العامة والقانون الذي يضبطها زعما، والحقيقة انه يطلقها من كل الضوابط العرفية والاجتماعية التي كانت تقيدها فيما قبل.

فبمقتضى هذا القانون أصبحت حرية العقيدة وحرية التعبير

من الرأي مكفولتين لكل الافراد، وتعنى الحرية الاولى حق الفرد في أن يعتنق ما شاء من المبادىء والعقائد، دون تدخل من السلطة، وهذا أمر مخالف لحكم الاسلام فيمن بدل دينه من المسلمين. فالشرع الاسلامي ان كان قرر حرية الاعتقاد والتعبد للملل المنضوية تحت لواء الحكومة الاسلامية، فانه منع ردة المسلم متعا باتا ووضع لها حكما يتضمن عقابا صارما لمرتكبها. فكيف نطلق نحن هذه الحرية ونشجع المنحرفين والمذبذبين والمدسوسين على التلاعب بالدين الذي يجب أن تحميه ولا نعرضه لما يجعله لا حرمة له ولا قيمة.

ثم ان هذه الحرية تفتح الباب للدعاة المسيحيين المسمين بالمبشرين، الذين يستهوون العوام بالوسائل المختلفة من تمريض وإحسان وغيرهما، وقد يستدرجون الشباب بوسيلة التثقيف وتعليم اللغات وتنظيم رحلات الى الخارج، فيصبح الشخص مومنا ويمسى كافرا كما أخبر بذلك الرسول (ص) في حديثه الشريف (1) ويغزى الاسلام في عقر داره، والمباشرون لهذا الغزو في حل من المتابعة، لانهم يعملون حسب قانون الدولة وهذا بغض النظر عن النتائج السياسية التي تترتب على استفحال حركة التبشير، كما نشاهده الآن في بعض الاقطار الافريقية بالخصوص.

وأما الحرية الثانية فتعني حق الافراد في التعبير عن آرائهم وابداء مشاعرهم دون تقييد سابق ولا تدخل من السلطة. وهي تشمل حرية الكلام والكتابة والنشر وما يقوم مقامها في التبليغ والاداء، وقد دخل على المجتمع الاسلامي من هذه الحرية مفاسد

---

1) الحديث أخرجه مسلم والترمذي.

كثيرة لانها خولت لكل من هب ودب أن يقول ويفعل ماشاء.

فالصحافة تنشر لطائفة من الكتاب مقالات في نقد العوائد والاخلاق الاسلامية وتنتقد حتى العقائد والمقدسات بحجة حرية الرأي، والكتب تصدر في الطعن على الاسلام وتاريخه وشخصياته الكبيرة ولا من رقيب عليها أو حسيب بل ان بعض هذه الكتب تقرر في المناهج الدراسية، فقد اختيرت كتب بعض الكتاب المسيحيين المصريين (1) في أحد البلدان الاسلامية ليقرأها طلبة الاقسام الثانوية بدعوى أنه قطب من اقطاب الفكر الحر، وكذلك يعتبرونه في مصر، مع أنه مسيحي متعصب فى داخل نفسه وان تظاهر بحرية الفكر وكان . كلما كتب مقالا ينال فيه من الدين والمقدسات، كتب مقالا ضده على خط مستقيم في مجلة المنارة المسيحية التي تصدرها الكنيسة القبطية في مصر، ولا يوجد من يفضحه ويعريه للناس حتى يعرفوا قيمته الحقيقة ونفاقه الذي يعتبره المغفلون حرية فكر.

وما قيل فى الصحافة والكتاب، يقال فى السينما والاذاعة والتلفزة، فقد صارت مناظر العرى والمغازلة والتخنث مما يعرض على الجمهور دون خجل ولا حياء والانعكاسات التي تكون لهذه المناظر على نفوس الشباب المراهقين، فتيانا وفتيات، وعلى عموم أفراد الاسرة، مما لا يجهل مفعولها أحد.

كل ذلك وأكثر منه يرتكب باسم حرية الرأي التي يحميها القانون فكيف نطمع ان يكون للدين شأن، وان ينشأ شبابنا على شيء من التدين في هذا الوسط الذي يطارد الدين وفضائله باسم القانون.

---

(1) هو سلامة موسى.

وكأني بمعترض يقول: انك تطعن في قانون الحريات العامة، فهل تريد ان نلغيه ونرجع الى ما سميته بزمن الحجر والضغط على الافكار. وأنا إنما اريد المحافظة على دين الامة واخلاق الشباب، وبناء المجتمع الاسلامي الذي تسود فيه الفضيلة، ويخضع لقانون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي به كنا خير امة اخرجت للناس، وبذلك نؤدي رسالة الاسلام التي طوقنا بها في قوله عز وجل: « وكذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »، وهي الرقابة الخلقية على الضمير العالمي والقوامة الروحية على المجتمع الانساني، لتبقى القيم والمثل بمنجاة من التزييف والابتذال.

فان كان قانون الحريات العامة او اي قانون آخر مما يتوافق مع هذه الاغراض النبيلة، فبها ونعمت، وإلا فليلغ ولا كرامة، فقد الغته في غير ما بلد اكثر من حكومة تنعت نفسها بالشعبية والتقدمية وما الى ذلك او عطلته، وما كان الذي الغته من اجله او عطلته بأفضل مما ذكرنا، وإنما هو المساس بسياستها او بمتسلط من ذوي الشأن فيها، « ولذكر الله اكبر والله يعلم ما تصنعون ».

مستقبل الاسلام بيد أبنائه

مما لا ريب فيه، أن مدا فكريا عظيماً يتصاعد يوماً فيوما، في كل بقعة من بقاع العالم الاسلامي، وهدفه مقاومة الغزو الفكري الاجنبي الذي طغا على الحياة العامة في بلاد الاسلام، فزيفها ولفها في ثياب الابتذال والاستلاب، حتى أصبح المجتمع الاسلامي صورة مهزوزة من المجتمعات الغرابية بما فيها من تدين مدخول ومادية ملحدة.

ولقد شعر مفكرو الاسلام وقادته المصلحون، بالخطر الذي يتهدد الوجود الاسلامي، منذ أخذت دولة الاسلام تترنح للسقوط، فأطلق السيد جمال الدين الافغاني صيحته المدوية التي كانت ترمي الى جمع كلمة المسلمين، ودعم دولتهم التي تحفظ كيانهم، علما بأن الاسلام دين ودولة، ومصحف وسيف، فلا قيام لاحدهما بدون الآخر.

وخلفه الشيخ محمد عبده، وان حول الدعوة من اتجاهها السياسي الى اتجاه علمي، فرد الشبه، ودحض المفتريات التي توجه الى الاسلام، وكون عند المسلمين وعيا بالمشاكل التي تعترض حياتهم الدينية في العصر الحديث، فصار هذا الاتجاه هو القناة التي كتب للمد الاسلامي أن يصب فيها من حين ظهوره الى الآن.

أما الاتجاه السياسي فقد اختلج المسلمون دونه، وتراجع مده بعوامل مختلفة، وتحت ضغوط داخلية وخارجية كما سنلمح اليه فيما بعد

وفي البدء لم يكن حماة الاسلام يواجهون ما نواجهه الآن من أنظمة سياسية ومذاهب اجتماعية واقتصادية متكاملة وانما كانوا يصطدمون بأقوال ومطاعن على تاريخ الاسلام والشريعة الاسلامية، وربط تأخر المسلمين بتمسكهم بالدين، وخاصة بعقيدة القضاء والقدر، التي تجعلهم يخلدون الى العجز والكسل، ويقعدون عن مجاراة الامم والشعوب الراقية، فقد كثرت المزاعم التي تتقول على الاسلام بأنه ضد العلم، وأن دولته اضطهدت الفلسفة والمفكرين الاحرار أينما كانوا، وأن عمر بن الخطاب أحرق مكتبة الاسكندرية لما فتح مصر، وأن حضارة الاسلام انما كانت امتدادا لحضارة الشعوب المفتوحة التي انضوت تحت سلطة المسلمين، لم ينشئها الاسلام ولم تتميز بشيء عن الحضارات السابقة، حتى التشريع الاسلامي لم يكن الا نسخة طبق الاصل من الفقه الروماني الذي كان منتشرا في الشام، وفي ظلاله نشأت المذاهب الفقهية الاسلامية المعروفة .

وراجت هذه الاقوال بين الشباب المتعلم الذي قرأها في اللغات التي كتبت بها، ونقلت بالترجمة الى العربية ضمن الكتب والدراسات التي وضعها المستشرقون عن الاسلام وتاريخه، وردد صداها بعض الكتاب من نصارى العرب مثال فرح أنطون في مجلة الجامعة، حين ادعى أن المسيحية كانت أرحب صدرا مع العلم والفلسفة من الاسلام، ولذلك نما غرسهما وترعرع في ظلها ما لم ينم ويترعرع في ظله.

وكانت الشريعة الاسلامية كذلك هدفا للطعن والتجريح،

وركز الانتقاد لها على وضعية المرأة في الاسلام، وما عاملتها به الاحكام الفقهيـة من حيف واجحاف بزعـم الخصوم، فمن تقييـد حريتها وضرب الحجاب عليها، ومنعها من التعليم، الى سيف الطلاق المصلت على رأسها، وجعل نصيبها من الارث على النصف من نصيب الرجل واباحـة تعدد الزوجات، وغير ذلك مما قضى على المجتمع الاسلامي بالتفكك وانعدام الالفة بين أفراده، وانتشار الجهـل وقبول الضيم ، اذ المرأة هي نـواة الاسرة وراعية البيت، ومربية الولد، فما كانت عليه من حال ظهر أثره في المجتمع ان صالحا او فاسدا.

وقد تلقف الجيل الجديد، ولا سيما الفتيات هذه الآراء، معتقدا صحتها، ومطالبا بانصاف المرأة ورد الاعتبار اليها، واعطائها حقوقها كاملة. وكتبت مؤلفات في هذا المعنى من أشهرها كتاب تحرير المرأة والمرأة الجديدة لقاسم أمين .

ولم تسلم أحكام المعاملات هي الاخرى من الاعتراض، فالربا الذي حرمته جميع الشرائع السماوية والوضعية، ولـم يجترم كبر تحليله الا اليهود عبر العصور، ثـم أخـذه عنهم النظام الرأسمالي الشائع، أصبح مما يعد في وسائل التقدم الاقتصادي، ويؤخذ على الاسلام عدم القول بجوازه، ويعزى تخلف المسلمين اقتصاديا الى تحرجهم من المعاملات المصرفية، وقبول الفائدة، حتى رسخ هذا الاعتقاد في نفوس الكثير منهم، وهفا بعض العلماء فأفتى بجوازه أو بعض الانواع منه .

كل ذلك انما كان المراد منه تشكيك المسلمين فـي دينهم، وصرفهم عن الحكم بشريعتـه، واضعـاف معنويتهم لتضعف مقاومتهم، وزعزعة كيانهـم ليسهل الاستيلاء عليهم، واذ ذاك يتم

استلابهم، فلا يبقى لهم ماض ينظرون اليه، ولا مستقبل يؤملونه، وتقر عين المستعمر بتبعيتهم له الى الابد.

ولكن علماء الاسلام انبروا لهذه التهم فردوها، وبينوا ما فيها من جهل وتحامل، وكان أسبقهم الى ذلك وأطولهم يدا الشيخ محمد عبده في كتابيه الاسلام والرد على منتقديه، والاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، وهما الكتابان اللذان ضما بين دفتيهما مجموع المقالات التي كتبها الاستاذ الامام في الرد على هانوتو ورنان، وإبطال دعاويهما على الاسلام، والاول من ساسة فرنسا الكبار، والثاني من فلاسفتها الاعلام. كما يضم الكتاب الثاني رده على نهج أنطون سالف الذكر فيما كتبه على فلسفة ابن رشد وموقف الاسلام من العلم والفلسفة بعامة الى ردود اخرى وتصحيحات لاخطاء وقع فيها غير واحد من الاجانب الذين تعرضوا للحديث عن الاسلام، تضمنها الكتابان المذكوران.

ولا اخالني مهما بالغت في القول، موفيا بحق التقدير العمل الفكري القوم الذي قام به الشيخ محمد عبده في المنافحة عن الاسلام، وتثبيت الشبيبة العصرية على الايمان، ووضع أسس الفكر الاسلامي الحديث الذي خلف علم الكلام القديم، فاني أشبه عمله هذا بعمل علماء السلف الذين واجهوا شبهات الفلسفة اليونانية، ومذاهب الفرق الاسلامية التي أحدثت في الاسلام، بما بين تهافتها ودحض مزاعمها، حتى خلصت العقيدة الاسلامية من جميع الشبه التي أوردت عليها، وحمى الله دينه وشريعته من زيغ الملحدين وفتنة المبطلين.

وبالاشارة الى الموضوعات الاساسية التي تناولتها تلك المقالات يظهر مدى الجهد الذي بذله المفكر الاسلامي الكبير في تقرير

حقيقة الدعوة الاسلامية، وما أتت به من اصلاح عام، ومنهج كامل للحياة هـو الذي قامت عليه الحضارة العربية التي اقتبس منهـا الاروبيون، وكانت السبب في يقظتهم ونهضتهم وكل ذلك باسلوب واضح وعرض جديد، يساير العقليـة المتطورة والتفكير الحديث، الذي لا يقتنع بالغيبيات، ولا يسلم الا بالدليل القاطع والواقع المحسوس.

واذا كان هانوتو، وهو يتحدث عن سياسة بلده فرنسا في الاقطار الاسلامية التي بسطت سلطانها عليها تعرض للعقيدة الاسلامية التي تقوم على توحيد الخالق عز وجل، وتنزيهه عن شبه التشبيه، فزعم أنها سبب تخلف المسلمين وركونهم الى حياة البؤس والخمول، بخلاف العقيدة المسيحية التي تقول بتعدد الآلهة فقد فتح المجال أمام الشيخ محمد عبده للمقارنة بين العقيدتين وأثرهما في أتباعهما، مع ملاحظة أن التثليث، وهو المراد بالتعدد، طارىء على المسيحية، متسائلا: ماذا كانت عليه حـال أوربا، وهي تعتنق المسيحية قبل اتصالها بالاسلام واشراق نـور حضارته عليها؟ ولما كان هانوتو يحرص على الربط بين الحضارة الاروبية والحضارة الهندية، ويعبر عنهما معا بالحضارة الآرية، ويرجع الفضل في نشوئهما والتقائهما الى القاسم المشترك بين الوثنية الهندية والمسيحية الاروبية، فقد دفـع ذلك الشيخ محمد عبده الـى الكلام على الحضارة الهندية، ونظام الطبقات الذي يتكون منه المجتمع الهندي، مما تقضى به وثنية الهند، معطيا لهانوتو أسوأ الامثله عما تلاقيه الانسانية من ذل وهوان فـي ظل الحضارة الآريـة التي يعجب بها، وبذلك أثبت جهله بالاديان وبالتاريخ .

ثم عرض لمسألة القضاء والقدر وما خبط به هانوتو فيها، فبين أن هذه العقيدة لم تختص بدين من الاديان، ولا فلسفة من الفلسفات،

وأن الناس ما زلوا فيها بين طرفين، وذكر له من طوائف المسيحيين خاصة، من يقول بالجبر، ومن يقول بالقدر، وبعد ذلك شرح مذهب الاسلام في المسألة وهو وسط بين الطرفين يثبت الكسب والاختيار، قال: ان في القرآن نحو أربع وستين آية تدل على ذلك. وضرب المثل بالنبي (ص) وجهاده في سبيل اعلاء كلمة الله وتبليغ دعوته، والصحابة الكرام وسلف الامة الذين نشروا الاسلام في جميع أنحاء الارض، وشيدوا تلك الحضارة التي أدهشت العالم في مدة وجيزة، وقبضوا على زمام الحكم في القارات الثلاث قرونا متعددة، فالقول بأن القضاء والقدر هو سبب تأخر المسلمين مغالطة مكشوفة لانه في الواقع وبالمفهوم الاسلامي الصحيح هو الذي قاد المسلمين الى مواطن العزة والنصر، وما قعد بهم الا الجهل والتواكل والدروشة التي دخلت عليهم من جهلة العجم، والطوائف المبتدعة والفرق الضالة.

ويرتفع مستوى التفكير عند رد الشيخ على هانوتو في مسألة التنزيه اي التوحيد والتشبيه أي الاعتقاد بتسجد الالوهية الذي جعله هانوتو مصدر تفوق الجنس الآري ومنبع حضارته، فيذكر أن الوثنية المجسمة التي هي بنت التشبيه كانت وما تزال عقيدة الذين وقفوا على أبواب المعرفة الانسانية ولم يدخلوها وهي دليل على انحطاط عقول معتنقيها مع تفاوت في درجات الانحطاط، من وثنبي افريقيا الى بوذيي الصين وأن الانسان كلما ارتقى في العلم تجلت له الحقيقة الكاملة حتى ينتهي الى الاعتقاد بوجود اله واحد ليس كمثله شيء، كان ذلك شأن اليونان الذين نشأوا على الوثنية، فما زالت وثنيتهم ترق وتضعف بارتقائهم في العلوم، وبحث فلاسفتهم في طبائع الكائنات حتى

انتهوا الى التوحيد، وقف فيثاغورس على عتبة التقديس، وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين بذلوا وسعهم في محاربة الوثنية. ومن قرأ جمهورية أفلاطون، علم كيف قارع هذا الفيلسوف عبادة الاصنام والعقائد السخيفة التي كانت منتشرة في أمته . . وهكذا يبرهن على أن الوثنية ما كانت قط علامة الرقي ولا عنوان الفضل كما يزعم هانوتو، ويتطرق بعد ذلك الى بيان مساوى العقيدة المسيحية التي قال هانوتو انها تحفز أتباعها الى طلب الكمال والتشبه بالآلهة في الخلق والابداع، فذكر من استعباد الكهنة والرهبان لعامة الشعب والنساء وادعائهم القدرة على مغفرة الذنوب، وسيطرة الكنيسة على العقول وتصرفها في حياة الناس بالاوهام الباطلة ما هو معروف، حتى قامت حركة الاصلاح، وقضت على كثير من مظاهر هذه العقيدة الفاسدة، فاستقامت أوروبا على طريق النهضة ولو بقيت متمسكة بتلك العقيدة لما أفاقت من غشيتها أبدا. هذا في حين أن الاسلام الذي جاء بالتوحيد، وتنزيه الخالق عن التمثيل والتشبيه، دعا الى افراد الله عز وجل بالعبادة، ولم يجعل بين العبد وربه واسطة أصلا، وحرر العقول والنفوس من سيطرة أي مخلوق وسلطة اي رئيس، وبذلك نفخ في اتباعه روح العمل والسعي وتحمل المسؤولية، فانتشرت الفضائل، وامحت الرذائل، وتنورت العقول، قال : ولئن طالت به غيبة فله اوبة، ثم هو على ضعف اهله وادبار دولته، ما يزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا وافريقيا وفي انتشاره الخير الكثير، فقد قال القس اسحاق طبار: «إن الاسلام ينتشر في افريقا ومعه تنتشر الفضائل فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشجاعة والاقدام من أنصاره.. في حين أن السكر والفحش والقمار، تنتشر بانتشار المسيحية،

واني لأفضل اسلاما لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر » .

هذه رؤوس أقلام فقط مما تناوله الرد على هانوتو، وأي شاب أو مثقف خالي الذهن من الحقائق الباهرة التي تنطوي تحتها، لا تستهويه تلك التهم الباطلة، ولا يتزعزع ايمانه ان لم يؤيد بروح من التربية الدينية، ويتوفر على معلومات مماثلة تثبته بالقول الثابت، وأنى له ذلك لو لم يقم هذا الامام بتقديمها له وتمكينه منها في سهولة واسماح ؟ .

★ ★ ★

وبمثل هذه البسطة في العلم والحصافة في الرأي، يرد الشيخ الامام على رنان الذي اتهم الاسلام بالجمود والتعصب، وقال في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع العلم: « على اني اخشى ان يثبت الدين الاسلامي وحده في وجه هذا التسامح مع العلم في العقائد، ولكني اعرف ان في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامي القديمة، وفي بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة تدل على فكر واسع وعقل ميال الى المسالمة، الا انني اخشى ان تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء، فاذا اختنقت قضى على الدين الاسلامي، ذلك انه من الثابت الآن أمران، الاول أن التمدن الحديث لا يريد اماتة الاديان بالمرة لانها تصلح أن تكون وسيلة اليه، والثاني انه لا يطيق ان تكون الاديان عثرة في سبيله، فعلى هذه الاديان أن تسالم وتلين والا كان موتها ضربة لازب » .

ولا يمكننا أن نعطى خلاصة لرد الشيخ على هذا الكلام. فانه افاض في الكلام على الجمود وآثاره السيئة في حياة الافراد والجماعات، ولم ينكر ما عليه المسلمون من جمود وتمسك بما ألفوا الا انه بحث في أسباب جمودهم هذا ورد أكثرها الى

استعجام الدولة، وجنايته على اللغة العربية التي بها تفهم مقاصد الكتاب والسنة وهما أصل الدين، ثم تكلم على جمود المحدثين من خريجي المدارس العصرية والدارسين في البلاد الاجنبية فذكر أنه كجمود القدماء شر على أصحابه، اذ يبادرون الى الافكار، ويعتقدون أن ما تعلموه أو رأوه خارج اوطانهم هو عين الحق، غير مميزون بين خطأ وصواب، ولا بين ما هو مدسوس على الدين او ما تقول عليه لمجرد العداوة للاسلام ونبيه الكريم، فينفضون أيديهم منه، زعما بأنهم من أنصار العلم والتقدم. وبعد بحث طويل في هذا الموضوع ختم كلامه بفصل في ان الجمود علة تزول، ومما جاء فيه هذه الجملة الفذة: «ان الاسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبدا، ولكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها وستكون المدنية من أقوى انصاره متى عرفته وعرفها أهله. وهذا الجمود سيزول، واقوى دليل على زواله بقاء الكتاب العزيز شاهدا عليه بسوء حاله، ولطف الله بتقييض اناس لكتابه ينصرونه، ويدعون اليه ويؤيدونه والحوادث تساعدهم، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم» .

ولا يمنعنا الاعجاب بهذا الرد المفحم، من ان نعقب عليه بأن المبالغة في التسامح والتساهل، ربما أدت الى عكس المطلوب فاذا كان المراد هو نشر العلم والمعرفة والتمكين لهما، وازالة كل العوائق والمثبطات من طريقهما فان علينا ان لا ندوس عقيدة الامة في سبيل ما يسمونه بالعلمانية، وأن لا نتجاهل المعالم التي يجب الوقوف عندها كما حصل في تركيا التي اثنى رذان على سعة فكر بعض رجالها من فصل الدين عن الدولة، والغاء الخلافة الاسلامية، واستبدال الحروف الاجنبية بالحروف العربية في

الكتابة، وكما حصل اخيرا في ايران، وهي ايضا قد حظيت بتنويه رنان، من الاحتفال على نطاق دولي بذكرى نشوء الامبراطورية المجوسية التي حطمها الاسلام .

ان الله قد جعل لكل شيء قدراً، فالتسامح وعدم التعصب مما ندب اليه الاسلام ودعا اليه، ولكن المسلمين قد ذهبوا في ذلك طرفا حتى اننا نقارنهم بالامم والشعوب التي اعلنت رسميا عن عدم تدينها فنجدهم قد اربوا عليها في عدم المبالاة بأمر الدين، والتضحية به اول الامر من غير ان يدعوهم داع الى ذلك او يجديهم شيئا عند من يتقربون اليهم به، فهذه الدعوة قد جاوزت حدها اليوم، واصبح المسلمون بحاجة الى الاستمساك والمحافظة اكثر من كل وقت مضى .

والرد الذي ارسى قواعد الفكر الاسلامي الحديث، وبدد كل شبهة توجه اليه، في اصله وتاريخه، هو ما كتبه الاستاذ الامام نقضا لما ادعاه فرح انطون فيما كتبه عن فلسفة ابن رشد ونشره بمجلة الجامعة من موافقة المسيحية للعلم والمدنية ومعارضة الاسلام لهما. وقد اثبت عكس ذلك بما لا مزيد عليه في وضوح الحجة وقوة البيان، فقرر ان طبيعة الاسلام مع العلم، وان الاصل الاول الذي قامت عليه الدعوة الاسلامية هو النظر العقلي لتحصيل الايمان، وان مقتضى العقل مقدم على ظاهر الشرع عند التعارض الى آخر ما ذكر من الاصول العامة، ثم انتقل بعد ذلك الى ذكر نتائج هذه الاصول في الحياة الفكرية الاسلامية، فتكلم على اشتغال المسلمين بالعلوم الادبية، ثم العقلية في الصدر الاول، واقبالهم على العلوم الكونية في القرن الثاني، وانشائهم لدور الكتب العامة والخاصة، والمدارس والمستشفيات، ونبوغهم في

مختلف العلوم والمعارف، وكشوفهم وتجاربهم العلمية التي افاد منها المغرب، وكانت اساس نهضته ومدنيته الحاضرة، وهذا الى تقديمه القول في اضطهاد النصرانية للعلم والعلماء، وفي ذلك عن الاسلام الذي كان اتباعه متسامحين مع اهل النظر من كل ملة، وتقريره لاصول النصرانية التي تنابذ العلم والمدنية، وهي الاعتقاد بالخوارق، وسلطة الرؤساء الدينيين، واطراح الدنيا والايمان بغير المعقول، وكون الكتب المقدسة حاوية لكل المعارف التي يحتاج اليها البشر، ومن ثم تعرض لاحراق مكتبة الاسكندرية في عهد جول قيصر، قبل ظهور الاسلام، وقتل العلماء وإحراقهم، ومراقبة المطبوعات، ومحكمة التفتيش على عقائد الناس، ورفض الكنيسة لاستعمال الحقن تحت الجلد ومختلف العلاجات الطبية الجديدة الى غير ذلك من مظاهر التخلف الفكري التي انما كان الدافع اليها التعصب المسيحي ومطاردة رجال الدين للعلم والمدنية.

ولا يقف الرد عند هذا الحد بل يمضي في مناقشة رأي فرح أنطون، في فلسفة ابن رشد ومذاهب المتكلمين في الوجود، فيبين خطأه في فهم أقوال هؤلاء الائمة، ويحرر المناط بما عهد في صاحبه من دقة النظر وسعة الاطلاع. وهذا القسم من الرد لا يهمنا هنا فلذلك لا نعرج عليه.

ان ما نريده من هذا العرض السريع، هو القول بأن حركة الفكر الاسلامي، في مدها الاول، بدأت قوية ومعتدة بنفسها ومستقيمة على الطريقة، وقد نزلت المعركة وهي مسلحة بسلاح العلم والايمان، فلم تعوزها الادلة اليقينية والوجدانية لدحر الخصم وكسب الانصار، وهم من الشباب وعامة المثقفين الذين اوشكوا ان يقعوا في حبال الدعايات المغرضة، وتسمم أفكارهم بالاراجيف التي تجا في

الحقيقة وتجنى على التاريخ أعظم جناية. فما أن انطلقت هذه الردود الموضوعية، حتى تلقفها الجميع بغاية التلهف، وكان لها الوقع الحسن في النفوس والتأثير البليغ على المشاعر، وسكنت هيعة المتطاولين على الاسلام، ولو الى حين واطمأنت قلوب المومنين بما هداها من الحيرة وغمرها من اليقين .

ولم يكن الجانب العقائدي والحضاري وحده من الفكر الاسلامي الذي أثار ردود الفعل على الخطة المبيتة لمهاجمة الاسلام، فالجانب الاجتماعي والاقتصادي أيضا مما تبارت الاقلام في الذب عنه، وابطال التهم الموجهة اليه، ولئن برز الشيخ محمد عبده وكاد ينفرد بالعمل في المجال الاول، فقد شاركه في العمل بالمجال الثاني علماء مصلحون عاشوا مثله عهد التكالب على الاسلام، والحملات المسعورة التي شنت ضده في مفتتح هذا القرن عند انهزام دولته، تداعيا مع المثل القائل: اذا سقطت الجزور كثرت السكاكين فانتدب اولئك الغير لحماية بيضة الدين والمنافحة عن حقيقته بما اوتوا من سعة علم وقوة بيان، وما كانوا ينطوون عليه من نزعة الى التجديد وتطلع الى الاصلاح، ونذكر منهم الشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ عبد الحميد الزهراوي والشيخ مصطفى الغلاييني والاستاذ محمد فريد وجدى والعلامة حسين الجسر، وتلك الطبقة التي لم تأل جهدا في ابراز محاسن الاسلام واسرار شريعته ومثله العليا وأخلاقه السامية، مغبرة في وجوه المعترضين والمنتقدين الذين خفيت عليهم حكمه وقيمه اوتجاهلوها، فرموه بما عبر عن ذات أنفسهم من حقد دفين، وجهل مشين .

ولقد حظيت قضية المرأة منهم بالبيان الشافي، اذ كانت محور الجدل الذي أداره الخصوم حول الشريعة الاسلامية، وعدم

صلاحيتها للحكم في العصر الحاضر الذي انتشرت فيه الحرية والمساواة، وشاركت المرأة الرجل في مسؤولية بناء الاسرة وتقدم المجتمع، قائلين: ان تشريع الطلاق وتعدد الزوجات وتنصيف الميراث مما غمطت به الشريعة الاسلامية حقوق المرأة، وجعلت منزلتها دون الرجل، فضلا عن تهديده الدائم للحياة الزوجية بالانفصام، واحتدام الخصام، وفقد معنى السكينة والمودة في البيت الذي يقوم على هذا الاساس، الى آخر ما تنادوا به من هذه الترهات.

وكان الرد في المستوى المطلوب، وكان ما كتب عن حقوق المرأة في الاسلام، مما يشرف هؤلاء الاعلام ويظهر عظمة الدين الحنيف الذي رفع من شأن المرأة بما لم تعرفه في عهد من العهود القديمة والحديثة على السواء فحين كان احد المجامع العلمية في اوربا يبحث في المرأة هل لها روح أم لا، كان الاسلام يعلن ان الجنة تحت اقدام الامهات، وان خير الرجال خيرهم لاهله، ويقول كتابه العزيز في معادلة حقوق النساء لواجباتهن: « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » أما الطلاق فهو تشريع رحيم، كثيرا ما يكون في صالح المرأة، وقد برهنت الحوادث على ذلك، فلم تبق هناك حاجة الى إقامة الدليل على حكمة مشروعيته، خصوصا بعد الازمة السياسية التي عاشتها ايطاليا أخيرا مدى سنة كاملة من أجل الاعتراف به.

وذلك مثل الربا الذي بقي مثار النزاع والبلبلة في الاوساط المالية والاقتصادية الاسلامية، اغترارا بما روجته الرأسمالية الاجنبية من انه لا ازدهار ولا رفاهية الا بتعاطيه، حتى قامت النظم الاشتراكية والحكومات المنبثقة منها وألغته، فأيدت بذلك نظر الاسلام اليه، وصح فيه القول « ان الله يؤيد هذا الدين برجال ليسوا منه » .

والقول في تعدد الزوجات مثل القول في الطلاق، فانه في صالح المرأة اكثر مما هو في صالح الرجل، ذلك انه قائم بالفعل، في كل مكان ومنتشر بالخصوص في المجتمعات الحضرية، لاسباب اقتصادية وجنسية، ولكن على هامش القانون، فالضحية الاولى فيه هي المرأة ثم الاولاد الذين لا يعترف المجتمع لهم بحق مادي ولا معنوي . . فالاسلام أضفى عليه صفة المشروعية، وأنقذ المرأة من ذلك الواقع السيء، وحفظ لها شرفها وحقوق اولادها في الارث والنسب، وزاد بطهارة المجتمع من الانحلال الخلقي وعوامل الفساد .

انه حل الاسلام لهذا المشكل، وليس عند المعترضين حل أفضل منه، فلقد قال اميل لودفيج الكاتب الالماني المعروف، ان أروبا سائرة نحو اقرار التعدد ان قريبا أو بعيدا . . .

ولعل القول في نقصان ميراث المرأة المسلمة، كان اهون ما واجهه المدافعون عنها، ما دام في قوانين المهاجمين ما يورث الابن الاكبر فقط، وما يسوى بين الورثة مع اختلاف مقاماتهم، فربما بخس المرأة اكثر مما ينتقدون من بخس الشريعة الاسلامية لها، هذا في حين ان المرأة في الاسلام لها من حق التصرف في مالها باستقلال عن زوجها وقرابتها ما ليس للمرأة في اكثر القوانين الاجنبية، ونفقتها الى حد اخدامها (1) واجبة على الزوج ولو كانت غنية وهو فقير، وزواجها لا يتم الا بمهر يدفعه الزوج، وفي تلك القوانين تدفعه هي، فحتى الآن وبعد ما زعموا من مساواة المرأة العصرية للرجل، ما يزال حق المرأة في الشريعة الاسلامية اعظم، ومكانتها اكرم .

1) اي ان يجعل لها خادما

ومن الجدير بالذكر ان الاستاذ محمد فريد وجدي خص المرأة المسلمة بكتاب قيم، حرص فيه على المقارنة بينها وبين المرأة في العالم الغربي المتمدن، فوصف ضروب الشقاء التي تعانيها المرأة الغربية من جراء مجابهة مطالب الحياة العصرية بحكم حريتها المزعومة ومساواتها للرجل، وما تنعم به المرأة المسلمة من سعادة وهناء بسبب حماية الاسلام وشرعه الحكيم لها.

وبالجملة فقد اخذت قضية المرأة حظها الكامل من الدراسة في هذه الردود، وابان العلماء في تناولهم لها عن بعد نظر واجتهاد في تعليل الاحكام الشرعية المتعلقة بها على وفق التطورات الاجتماعية الجديدة، فأسكتوا المتقولين، واقنعوا المتطلعين، واثروا الفكر الاسلامي ايما ثراء، في هذه الناحية التي هي شطر الدين على حد ما جاء في حديث «خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء» يعني عائشة، وذلك لان المرأة نصف الرجل، والنساء شقائق الرجال في الاحكام، فالحاجة كانت جد ماسة الى عرض موقف الاسلام منهن، وبيان الاصلاح العظيم الذي جاء به فيما يخصهن، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من يحيى من بينة، وقد كانت تلك الاحكام مقررة في الشريعة ولكنها غير موجهة هذا التوجيه العصري، ولا مقارنة بما يقابلها في القوانين المحدثة والشرائع المتقدمة، فوقع تقريرها بهذا الاسلوب الحكيم بردا وسلاما على قلوب المومنين وخسأ الذين سفهوا انفسهم بما كانوا يفترون، (يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون).

☆☆☆

نعم هكذا كانت الانتفاضة الاسلامية الاولى واعدة، ومتعاطفة مع آمال المسلمين في مستقبل زاهر للاسلام ومتمكنة من وسائل دعم دولته وتجديد دعوته، الا ان تقسيم الوطن الاسلامي الى

دويلات اشبه بـدول الطوائف وقيام اغلب هذه الدول على نظـم الحكم ومذاهب سياسية مستوردة. حال دون ذلك، وبقي الفكر الاسلامي عائما تتقاذفه التيارات الاجنبية، لا يأوى الى ركن يسنده، ولا يمد احد اليه يدا بنجدة او انقاذ . . .

وهذا هو مـا أشرت اليه من قبل من ان الاتجاه السياسي للاصلاح الاسلامي الذي دعا اليه المجدد الاول السيد جمال الدين الافغاني قد انصرف المسلمون عنه بعوامل مختلفة، وتحت ضغوط داخلية وخارجية. فبالرغم من ان صوتا آخر من أجهر الاصوت، كان قد ارتفع بهذه الدعوة، وهو صوت السيد عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتابي طبائع الاستبداد وأم القرى، وان صداها لم يزل يتردد بين جنبات العالم الاسلامي من طرف دعاة كبار كالامير شكيب ارسلان والشيخ حسن البناء والسيد أبي الاعلى المودودي والاخ علال الفاسي وسواهم، فان أكثر زعماء الأحزاب السياسية والحكام الذين قاموا في البلاد الاسلامية بعد القضاء على الخلافة العثمانية، كانـوا متشبعين بأفكار وايديولوجيات أخرى، حرصوا كل الحرص على تطبيقها من غير نظر في موافقتها او معارضتها للاسلام . . وكان الذي يغامر بانتقادهم ويطالب باقامة حكم نابع من دستور الاسلام الخالد وهو القـرآن الكريم والسنة النبوية يستهدف لسخرية العملاء والدلادل ونبزه بأقبح النعوت كـالجمود والتزمت وعدم التفتح على العصر الذي يعيش فيه، وهذا ان لم يتعرض للاذى والعقاب من طرف رجال الحكم أنفسهم .

ونتـج عن ذلـك ان كثيرا من الحكام لمـا رأوا تمسك شعوبهم بالاسلام، وتغير قلوبهم عليهم، صاروا يتملقون العامة ببعض المظاهر الاسلامية، واوعزوا الـى انصارهم وصنائعهم بالعمل علـى

إلباس تلك الافكار والايديولوجيات لباس الاسلام، وادعاء انها هي المفهوم الحقيقي للدين الحنيف الذي اخطأه السلف والخلف، ولم يستبن معناه الا لهؤلاء القادة الابرار والساسة الاحرار.

ومن المؤسف ان يقع بعض الكتاب المخلصين في هذه الخدعة، ويوالوا نشر المؤلفات التي تضرب على نغم جميع المذاهب المستوردة، حتى لنخشى ان تصبح الشيوعية الماركسية واللينينية اسلاما صحيحا مؤيدا بالنصوص واعمال بعض رجالات السلف الصالح.

ولا شك في ان هناك ضغطا خارجيا على بعض الحكام المسلمين الذين يتبنون هذه السياسة او تلك، الى جانب ايمانهم بجدواها دون السياسة الاسلامية، وان ما يعبر عنه بالمساعدات المشروطة، ان كان انما يهدف في الظاهر، الى حماية مصالح الجهة التي تبذل تلك المساعدات. فانه في باطن الامر، لا يعدو ان يكون توجيها سياسيا وضغطا على اتباع مذهب هذه الجهة او عدم مخالفته على الاقل.

وهذا هو التفسير الواقعي لحملة الابادة التي تعرضت لها احدى الهيآت الاسلامية الكبرى في بلد شقيق قبل بضع سنوات.

وقد يكون بعض الحكام ممن لا يهتمون بشؤون الدين، فيغتنم خصوم الاسلام الفرصة ويعملون على نشر مبادئهم، ومحاربة عقيدة الاسلام، كما حصل في اندونيسيا لما اصبح الحزب الشيوعي فيها اكبر حزب في العالم ينتمي الى هذا المذهب، خارج بلاد الاتحاد السوفياتي.

والناس يتعجبون من انقسام دولة باكستان، ونجاح دعوة الانفصال فيها، مع انها دولة انما قامت على اساس الفكرة الاسلامية والاخوة الدينية، ولكنهم ينسون ان هذه الفكرة منذ كانت وهي

ملاحقة من خصوم الاسلام ومحاربة بطرق خفية ومكشوفة، فالمكشوفة هي التي تسير عليها سياسة الهند الوثنية، والخفية هي التي استخدمتها الهيآت المشبوهة بعد فتور الحماس الديني لباكستان الاسلامية الذي كان يتصف به حكامها الاولون فما زالت تفتل في الذروة والغارب بنشر المذاهب السياسية التي اشرنا اليها مرارا وان لم نسمها، للعلم بها، وتأسيس الاحزاب التي تحمل فكرة التقدمية وما اليها وتعارض فكرة الاسلام، فلم يكن الا كلا ولا، حتى انتشرت دعوتها بين الشباب والعمال والجماهير الشعبية، لا سيما ودعاة الفكرة الاسلامية مبعدون ومحاربون، وهم بحكم نزاهتهم واستقامتهم لا يمدون ايديهم الى الخارج، في حين ان الاحزاب الاخرى تتدفق عليها الاعانات وتلقى التأييد المعنوي في كل مناسبة. فلما جاءت مناسبة تلقى التأييد المادي اعلنوها حربا شعواء على الاسلام ودولته الكبرى، وتفككت تلك الرابطة، وقضت شهوة الحكم واهواء الذين باعوا انفسهم للشيطان على مجهودات نصف قرن او اكثر لحماة الفكر الاسلامي الذين عملوا على انشاء باكستان.

ان الاحزاب السياسية التي كانت تعمل في الهند بحسب مخطط اسلامي هادف، والتي كانت تحارب من قبل الانجليز، قد لوحقت في باكستان، ونصب على رأسها اناس ليسوا في المستوى فصبغت بصبغات مستوردة ولما تمكنت من الاعلان عن نفسها، اظهرت خبثها، فتكشفت الرغوة عن الصريح، وتبين الصبح لذي عينين .

فالانحراف عن خط الاسلام هو الذي قسم باكستان شطرين، ولو أنها استمرت في بناء كيانها على الاساس الذي قامت عليه،

لما كان مستبعدا ان يأتي الوقت الذي تنضم فيه اليها الستون مليونا مسلما الباقية في الهند تحت سيف التهديد والوعيد، لا ان تنفصل عنها البنغال .

ان الاسلام لا يقبل المزاحمة، فاما عقيده اسلامية، وشريعة اسلامية، واخلاق اسلامية، في دولة اسلامية تحمي هذه القيم من التزييف والتحريف، واما هذه الفوضى والتمزق الذي يعيش فيه المسلمون، ويدمغهم بالخنوع والاستسلام، فما ينهضون من نكسة الا ليقعوا في نكسة أعظم . . .

واذا كان تقسيم العالم الاسلامي الى دويلات مدنية، هي المسؤولة عن إيقاف المد الاسلامي الاول، على ما بيناه آنفا، فان العلماء الذين يتواطؤون مع هذه الدويلات في التمكين للنظم المستوردة، والنسخ (الكوبيا) من المذاهب الاجنبية، وتزكيتها بنسبتها الى الاسلام أو نسبة الاسلام اليها، هم المسؤولون عن تعويق المد الاسلامي الجديد الذى يهدف الى قيام دولة اسلامية بكل معاني الكلمة، وابعادها ويضع فكرة السيد جمال الدين موضع التنفيذ،

فعلى هؤلاء ان يهتدوا بالدعاة الاولين الذين ارتفعوا بالاسلام عن أي تبعية أو اندماج، ويجعلوه هو الحكم الذى ترضى حكومة والمرجع الاول والاخير في كل مشكل، صادرين عن قوله (ص) فيما ينبغي ان يكون عليه علماء الاسلام: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» .

وعلى الحكومات التي تقوم في مختلف البلاد الاسلامية أن تجرب سياسة الاسلام والحكم بشريعته، والتمهيد للعقيدة الاسلامية والاخذ بيد دعاة الفكر الاسلامي الصحيح، الذين هم آخر من

ينزع يدا من طاعة، لان نظام الحكم في الاسلام قوامه السمع والطاعة، وعدم منازعة الامر أهله، ومن خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية كما في الاحاديث الصحاح، فما تخشاه من انتشار الدعوة الاسلامية، وقوة الهيآت المتقيدة بالاسلام، وعودة السلطان الاسلامي، انما هو وهم وتسويل من الشيطان، وايحاء ودس من الدول الاجنبية التى يهمها بقاء نفوذها سارى المفعول في كل بلد اسلامي لتشل انبعاث الجامعة الاسلامية الكبري التي تعد خطرها اعظم من خطر الحرب الذرية . . .

ولا دليل على براءة الحركات الاسلامية من الشغب والشبهة أكبر من أن الانقلابات الحكومية التي وقعت في أي بلد اسلامي خلال القرن، اعتبارا من الانقلاب التركي، لم يكن القائمون بها من العناصر التي تتخذ الاسلام شعارا لها، ولو على سبيل الدعاية، وأن الاحزاب السياسية المعارضة التي توجد في البلدان الاسلامية ولا سيما العربية ليس فيها حزب واحد ذو نزعة دينية، فليضع الحكام اذن يدهم في يد دعاة الاسلام بملء الايمان والثقة، وليرفعوا معا راية الاسلام، فان مستقبل هذا الدين الحنيف بين أيديهم، وان الله سائلهم عنه لا محالة : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) .

عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت

طغى الجانب السياسي على الجانب العلمي من ترجمة المهدي بن تومرت صاحب دعوة الموحدين، حتى كادت شخصيته العلمية تذوب في شخصيته السياسية. وبالفعل فإن المؤرخين والكتاب الذين تناولوا ترجمته بالنقد والتحليل، لم يعنوا إلا بأعماله السياسية ومعاركه الحربية، والخطوط التي وضعها لتأسيس الدولة التي قضت على دولة المرابطين . وفي ظني أنهم لو عنوا بالناحية العلمية من حياته، وقدروا جهوده في نشر المعرفة ودرسوا انتاجه الفكري حق الدراسة، لخرجوا بنتائج رائعة في التعريف بالرجل وتجلية شخصيته، وانصافه من الاحكام المبتسرة التي تسجل عليه من غير ترو ولا تحقيق، وان كان العلامة ابن خلدون لم يغفل هذه الناحية، ولذلك جاء رأيه في المهدي على جانب من العدل والانصاف .

على أن السياسة حقا قد طغت على أعمال المهدي بعد انصرافه للدعوة . واشتغاله بتدبير امر أتباعه وانصاره، وتورطه في حرب المقاومة، ولولا ذلك لاتانا منه علم غزير وانتاج كثير، لانه كان إماما من ائمة العلم والدين، ذا ملكة راسخة وقوة على النظر والجدل، بحيث يضاهي كبار الشخصيات العلمية البارزة التي ظهرت في المشرق لعهده من أصحاب المقالات والمدارس في علمي الاصول والكلام، فضلا عن تضلعه في الفقه والحديث .

وقد خرج لطلب العلم من بلده سوس سنة 500 وهو ابن خمس عشرة سنة، ولا شك أنه توقف في مراكش وأخذ بها عن بعض شيوخها ان لم يكن قد مر بفاس واشتغل فيها على علمائها العديدين، ثم دخل الاندلس فنهل بها ما بل من ظمأه العلمي، وجاز البحر من المرية في مركب إلى المشرق كما يقول ابن القطان. وهناك تعمق في الطلب، وأشبع نهمته من العلم ولقاء المشائخ.

وكان ممن لقى من كبار العلماء في الاسكندرية أبو بكر الطرطوشي، وفي بغداد الكيا الهراسي (1) وأبو حامد الغزالي على ما جزم به أكثر المؤرخين، وزاد ابن إبي زرع أنه لازمه ثلاث سنين، وحج وأقام بمكة مدة، ودامت رحلته ما يزيد على عشر سنوات.

ولسنا بصدد التعرض لما يتعلق بعمله السياسي فيما بعد، وان كانت الروايات عن نشأته ورحلته لا تفتأ تربط بين أحواله في هذا الطور من حياته، وبين ذلك العمل العظيم. على أن اهتمامه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجازفاته في سبيله، هو في نظرنا مما يرجع الى غيرته الدينية، ويقظة ضميره أكثر مما يرجع الى نزعة سياسية كما نبهنا عليه في غير هذا المقام، فأحرى بنا أن لا نعدل به عن هذا التوجيه ونحن لا نستعرض إلا الجانب العلمي من ترجمة صاحبنا ابن تومرت.

ويشير ابن خلدون الى عودة المهدي من رحلته المشرقية، وما جناه فيها من الثمار اليانعة، وما صار له من شفوف في العلم

1) الكيا بكسر الكاف هو أبو الحسن علي بن محمد الطبري، نقل ابن خلكان عن عبد الغافر الفارسي فيه أنه كان ثاني الغزالي بل آصل وأصلح وأطيب في الصوت والنظر.

والمعرفة بالآراء والمذاهب، وما قام بـه من دعوة صادقة لتنبيه مواطنيه المغاربـة الى الاشتغال بالعلوم العقلية، والنظر فى أقوال علماء الكلام، وخاصة الاشاعرة منهم، إذ كان مذهبهم غير رائج فى المغـرب ولا بلغ اليه صدى المناظرات العظيمة القائمة بين أئمته فى بلاد المشرق . . وذلك فى فذلكة عظيمة القيمة بالنسبة الى بحثنا هذا وهى قولـه :

« وانطوى هذا الامام راجعـا الى المغرب بحراً متفجراً من العلم، وشهابا واريا من الديـن، وكان قد لقى بالمشرق أئمـة الاشعريـة من أهل السنـة، وأخذ عنهـم، واستحسن طريقتهـم في الانتصار للعقائد السلفية، والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهـل البدعة . وذهب الى رأيهـم في تأويـل المتشابـه من الـآي والاحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل واقرار المتشابهات كما جاءت، ففطن أهل المغرب لذلك، وحملهم على القول بالتأويل والاخذ بمذاهب الاشعرية في كافـة العقائد، وأعلـن بامامتهم، وألـف العقائد على رأيهـم، مثل المرشدة في التوحيد . وكان من رأيه القول بعصمة الامام على رأي الامامية من الشيعة وألـف في ذلك كتابه في الامامة الذي افتتحه بقوله : أعـز ما يطلب » الخ .

ففي هذه العبارات الموزونة، تقدير لشخصية الرجل العلمية، وتحديد لنوع الدعوة التي جاء يحمل لواءها حتى ذاعت وانتصرت، وتنصيص على الجنوح الذي ارتكبه في هذه الدعوة، ومال به عن رأي أهل السنـة من أشاعرة وغيرهم .

أمـا الشخصية العلمية التي اثبتها للرجل فقد قلنـا كلمتنا فيها، ويأتينا مزيد تقرير لها وتأكيد عليها .

واما دعوته التي قام بها وروج لها من الاخذ بمذهب الاشعرية في العقائد والاحتجاج عليها بالعلوم النظرية، فالامر فيها يحتاج الى شيء من البيان والتوضيح . ذلك ان اهل المغرب لعهد المهدي ورجوعه من رحلته المشرقية، كانوا إلا قليلا منهم على مذهب السلف في الاعتقاد بظواهر النصوص والصفات الواردة فيها من غير تأويل ولا صرف لها عن مدلولها اللغوي، مع التنزيه للخالق عز وجل وذاته العلية عن ان تشبه الذوات وتتصف بصفات المخلوقين، وذلك هو المذهب الذي عبر عنه الامام مالك متبوعهم في الفقه والاحكام الشرعية بقوله للذي سأله عن الاستواء في قوله تعالى : « الرحمان على العرش استوى » الاستواء معلوم والكيف مجهول . وكذا القول في الوجه واليد والعين والنزول والمجيء والضحك وغيرها مما ورد اطلاقه على الله سبحانه وتعالى في الكتاب او السنة، فانهم يمرونه على ظاهره، ولا يؤولونه بالذات او القدرة مثلا فراراً من الافتيات على الشارع الذي عبر بذلك، ولكنهم يعتقدون التنزيه ومخالفته تعالى للحوادث، فلا يلزم على الايمان بظواهر تلك النصوص اي محظور .

هذا هو الموقف الذي كان المغاربة يلتزمونه في العقائد ابان ذاك، وهو كما علمت مذهب السلف الصالح من ائمة المسلمين، فالقول بأن المهدي وجد علماء المغرب على حالة من الجمود وعدم استخدام العقل، ونبذ النظر كما يقع في كلام بعضهم، هو من الغلو والمجازفة، والقاء الكلام على عواهنه . . فإن هذا المذهب ايضا قائم على الحجة، ونظر العقل وترجيح انه مقصد الشرع ومراده، وان العدول عنه بالتأويل والتوجيه مخالفة لذلك المقصد، وعدول عن ذلك المراد .

نعم، لمّا انتشرت المذاهب الفلسفية في المشرق، وكثر الجدال بين أهل الملل والنحل غير الاسلامية وبين المسلمين، وكان المنكرون من علماء الاسلام على الوثنيين وعباد الاصنام يسخرون من عقولهم، ويعيبونهم بعبادة آلهة مثلهم مخلوقة، لا تملك لانفسها نفعا ولا ضراً، فان هؤلاء جعلوا يتهمون المسلمين بالتجسيم وعبادة اله على مثال المخلوقات ذي وجه ويد وعين، وتطرأ عليه الانفعالات النفسية من الرضا والغضب، وما الى ذلك، ولا يخلو من الاعراض الجسمية كالحركة والسكون، وتسربت هذه الوساوس الى عوام المسلمين، ولم يستطيعوا التخلص من بوائقها، فقام أئمة الدين وحفظة العلم من الاشاعرة والماتريدية وبقية علماء الخلف السنيين برد هجوم هؤلاء الملاحدة والمتنطعين، والدفاع عن حقيقة الدين وبيضة الاسلام، ومجادلة أرباب المذاهب الفلسفية، والدعوات المناهضة للحق بمثل الطرق التي يستعملونها في الطعن على الاسلام، والاساليب النظرية التي يهاجمون بها عقائده، وكان مما استحدثه الاشعري ومن أخذ بطريقة تأويل بعض الصفات والاقوال الموهمة، التي لا تستطيع العامة أن تتخلص من اعتقاد لوازمها، فقالوا في الاستواء على العرش، انه الاستيلاء والظهور والغلبة، أخذا من قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

كما قالوا في الوجه، انه الذات وفي العين، انها الرعاية والحفظ، وفي اليد، انها القدرة وفي النزول، انه الامتنان الى غير ذلك مما هو معروف، وقصدهم بالاول وبالذات، انما هو المحافظة على عقائد العامة والمسلمين الذين دخلوا في الاسلام

حديثا من أهل الملل المجسمة وأشباههم، وهو اجتهاد على كل حال أوجبته الضرورة، وأملاه الموقف الذي كان عليه أمر الاعتقاد في المشرق الاسلامي. أما في المغرب فلم تدع لذلك ضرورة ولا جد موقف غير الذي كان عليه الحال أيام السلف، فلم يكن ثم لزوم بل ولا مبرر لرواج هذه البدعة، ولذلك قاومها العلماء المغاربة بنصح واخلاص.

وقلنا آنفا، ان أهل المغرب إلا قليلا منهم كانوا على مذهب السلف، ونحن نعني ما نقول، فلم يكن المهدي هو أول من تكلم في مذهب الاشعري أو دعا الى تأويل النصوص في المغرب، بل سبقه بعض أهل العلم لذلك، ولا سيما في سبتة وفاس على ما بيناه في غير هذا البحث، ولكن هذا المذهب لم ينتشر ويسد على مذهب السلف، إلا بعد قيام المهدي بدعوته التي جند لها جنوده، وحمل الناس عليها بدون رفق ولا هوادة، وساعده على ذلك، أنه كان قد انتشر في المشرق، وأصبح المذهب السائد الذي هزم مذهب أهل الاعتزال على ما كان له من التمكن والسلطان.

ومما لا شك فيه أن المهدي قبل رحلته رأى ما تعرض له كتاب الاحياء للغزالي من الاحراق والاتلاف في المغرب والاندلس، ووعى الحملة الشعواء التي شنها عليه علماء الاندلس والمغرب، والتي تزعمها القاضي ابن حمدين قاضي قرطبة، وهو أكبر شخصية علمية في مملكة المرابطين يومئذ، وكان مما ينكر على ذلك الكتاب، مسائل في العقيدة خالف فيها كثيراً من المسلمات عند اهل السنة، فكان من وكده في رحلته التحقق من هذه المسائل والتعرف على الحياة العلمية، والاتجاهات العقدية في المشرق، وهذا في نظري مما يرجح لقاء المهدي

للغزالي وهـذا ايضا هو مـا غرس في نفس ابن تومـرت بذور الثورة على الواقع المغربي، وجعله يقوم بدعوته المكتسحة لكل مخلفات تلك الحملة التي احـرق بموجبها كتاب الغزالي، من مذهب السلف في العقائد، ومذهب الامام مالك في الفقه، وان كان قد نجح في الانتصار على الاول ولم ينجح في الانتصار على الثاني.

بقي الكلام على النقطة الثالثة من مقالة فيلسوف المؤرخين، وهي المتعلقة بجنوح صاحبنا الى مذهب الشيعة الامامية في القول بعصمـة الامام، وهـو امر محير حقـا، فإن المذهب العقدي الذي التزمه وهو الاشعرية، والعلماء الذين اخذ عنهم واتصل بهم في رحلته، وحياته العلمية وسلوكه في الدعوة من اول مـا بـدأ، كل ذلك كان حريا ان يجافي بينه وبين هذه النظرية، ويجعله إلبا عليها لامعها . ولكن قبح اللـه السياسة، فهذا الرجل الذي كان همه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، اينما حل وارتحل، وكان ينكر على الولاة واولى الامـر تعاظمهم وتعاليهم على الناس، والذي قامت دعوته على التوحيد الخالص المدعم بالادلة النظرية، والحجج العقلية، يتورط في هذه المضيعة، ويدعى لنفسه ما لم يسلم لمن هو اكبر منه شأنا واعظم قدراً، ثم يزيد فيزعم انه المهدي المنتظر الذي يملأ الارض عدلا كما ملئت جـوراً على حسب ما ورد في الحديث الشريف . وذلك لتكثير الاتباع والانصار، والتأثير على عقول السذج والعوام، لما رأى انه لا مفر لـه من مصاولة خصومه ومنازلتهم في ميدان الحرب والقتـال .

فالامـر إذن يتصل بحركته السياسية، وتمهيده الدولة التي عنى بانشائها لمـا قوى عزمـه على مقاومة المرابطين بالسلاح . فلندع السياسة جانبا، ولنعد إلى بساط العلم الذي يعنينا . ولكن

لا بد ان نشير الى ان اخذه بهذا الرأي الشيعي قولا وعملا، كان متأخراً عن المدة الاولى التي ظهر فيها بدعوته المتمحضة للامر والنهي والتوحيد، بدليل انه في مجادلاته ومناظراته للعلماء بالمجلس الذي عقده له امير المسلمين علي بن يوسف في مراكش وغيره، لم يفه بشيء من ذلك، ولا حكى احد عنه ما تشم منه رائحة التشيع او دعوى المهدوية، ثم ان رسالته في الامامة التي صرح فيها بهذا الرأي، واكده بمختلف العبارات هي ايضا مما يدل على ذلك، لانها جاءت مقترنة بالدعوة الى القتال لنصرة الحق، واظهار السنة مع الامام المهدي القائم بالحق، والناصر لدين الله ووجوب طاعته واتباعه، وعدم مخالفته فيما قل أو جل، الى آخر الالتزامات المشددة التي تقررها الرسالة، وهو أمر لم يرد في كتبه ورسائله السابقة عليها، فدل على أنه أمر محدث، اوحت به السياسة، او اقتضاه الموقف الجديد الذي ادى بابن تومرت الى اعلان الحرب على خصومه .

وهذه الرسالة التي تناولت قضية الامامة والعصمة والمهدوية، هي رسالة مستقلة عن كتاب أعز ما يطلب الذي لا شك أنه كان من أوائل تآليفه، ولذلك فانه يعد كتابا تعليميا خاليا من الشعوذة كسائر كتبه التي وضعها في مبدأ أمره، وقد نوه فيه بقدر العلم، وحث على طلبه، وتعرض لمسائل من طرق العلم وأبواب من أصول الفقه، وبناه على المناظرة التي جرت له بأغمات، وليس فيه كلام على الامامة وما يتعلق بها، فقول ابن خلدون في النص المتقدم عنه : « وكان من رأيه القول بعصمة الامام، على رأي الامامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الامامة الذي افتتحه بقوله اعز ما يطلب » فيه تساهل كبير، لانه

يعتبر مجموع تآليفه المبدوء بكتاب أعز ما يطلب، والذي من ضمنه رسالة الامامة هذه كتابا واحداً، وليس الامر كذلك، فإن هذا المجموع كما طبعه كولد زهير يحتوي على عدة كتب ورسائل للمهدي، ولا يمكن أن يعد كله كتابا واحداً فمن نتيجة التفريق بين هذه المؤلفات، اهتدينا إلى أن اعلانه برأيه هذا في الامام وعصمته كان متأخراً عن مبدأ قيامه وظهور دعوته، وتلك نتيجة ليست بقليلة الاهمية.

ومما يجب التنبيه إليه، أن القول بوجوب نصب الامام وعصمته كان هو نصيبه من التشيع، أو من مذهب الشيعة الامامية على الاصح، وبعده لا نجد له أي صلة بهذا المذهب، ولا ميل إلى التشيع في قول ولا فعل.. فتشيعه هذا كان سياسيا واستغلالا لقول من أقوال الشيعة، يتعلق بالحكم أكثر مما يتعلق بالعقيدة والاحكام، ولذلك قال ابن خلدون فيه: « ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الامامية من الشيعة في القول بالامام المعصوم » وهي كلمة صحيحة إلى أبعد حد.

ويقتضينا التعرض لحياة ابن تومرت العلمية، أن نلم بذكر مؤلفاته التي وصلت إلينا، والتي يشكل أكثرها املاءات صدرت عنه أيام تصديه لتعليم أصحابه، وتثقيف طلبة الموحدين، من عبد المومن خليفته، الذي لقيه بقرية ملالة وهو بصدد الرحلة في طلب العلم، فقال له: « لقيت علما وشرفا » فمن دونه. وهي ما بين كتب ورسائل صغيرة تؤلف المجموعة الآتية:

1 ـ أعز ما يطلب، وقد ذكرناه وبه تسمى المجموعة.

2 ـ كتاب الصلاة وضمنه أحكام الطهارة بتفصيل واف من الحديث والاثر. ولذلك أمر المنصور الموحدي بجمع أحاديث

في الصلاة على النحو الذي فعله ابن تومرت في الطهارة .

3 ـ رسالة الدليل على أن الشريعة لا تثبت بالعقل، أو هي رسالة القياس، وفيها رد على المعتزلة في تحكيمهم العقل، وبذلك ينتفي عنه ما نسب إليه من الاعتزال، وأثبت القياس الشرعي، وبها حكمنا أن الموحدين لم يكونوا ظاهرية كما ينسبهم من يتساهل في تحقيق أمرهم .

4 ـ رسالة في العموم والخصوص، وبعض المباحث الاصولية .

5 ـ رسالة في طرق العلم .

6 رسالة في تقسيم المعلومات .

7 ـ رسالة الحدث بفتح الدال وهي مباحث من علم الكلام .

8 ـ رسالة العبادة والاحتجاج على وجوبها .

9 ـ عقيدة التوحيد .

10 ـ عقيدة المرشدة . وتمتاز الاولى عن الثانية باشتمالها على الدلائل العقلية بطريقة الاشاعرة وهي أكبر منها .

11 ـ رسالة الامامية وقد ذكرناها.

12 ـ رسالة القواعد وفيها كليات صالحة في الشريعة، ولكنها تشتمل على امور منكرة من التشديد في الدين ووجوب الايمان بالمهدي وعصمته (1) .

13 ـ رسالة في بيان طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين، وامرها واضح .

---

1) وهاتان الرسالتان هما مما دونه بالعربي والبربري حسب كتاب الحلل الموشية .

14 ـ رسالة فيما بشر به النبي (ص) من ان طائفة من امته لا تزال على الحق .

15 ـ رسالة في فضل التوحيد والاستدلال عليه من طريق النقل.

16 ـ كتاب الطهارة ويتضمن بعض احكامها من الحديث النبوي، ويظهر لنا ان الموضوعين الاخيرين وما يتلوهما في المجموع إلى ص 362 من حديث رفع العلم والامانة وغير ذلك، هو ما عبر عنه في طالعة المجموع باختصار مسلم، وان اوهمت العناوين المتميزة انها املاءات مستقلة، وعلى كل حال فهو اختصار موجز على مثال ما فعل ابن ابي جمرة فيما بعد عند اختصاره لصحيح البخاري .

17 ـ رسالة في ذم الخمر وعقوبة شاربها .

18 ـ كتاب الجهاد وما ورد فيه من الثواب وهو رسالة متوسطة الحجم، هذا ما تضمه مجموع اعز ما يطلب من تآليف المهدي بن تومرت كتبا ورسائل، يتخللها بعض الاملاءات الصغيرة في التحميد والتسبيح والثناء على الله عز وجل مما لا يمكن عده من التآليف بالمعني العلمي .

وقد نشر هذا المجموع في الجزائر سنة 1903 بعناية المستشرق گولد زهير مع مقدمة له بالفرنسية .

19 ـ ومما وصلنا ايضا من تآليف المهدي كتاب الموطأ المعروف به والمنسوب إليه . وهو كتاب كبير اختصر فيه موطأ الامام مالك بحذف سند الحديث، وضم إليه ابوابا متفرقة، واحاديث كثيرة مما لم يخرجه الامام . وقد طبع في الجزائر ايضا سنة 1907 ويقع في 738 صفحة .

هذه آثار ابن تومرت العلمية التي إذا اضيفت الى جهوده العملي

في نشر المعرفة وتعليم الجماهير الغفيرة من ابناء القبائل المغربية، أزرت او كادت بأعماله السياسية وما بذله من مجهود في انشاء دولة الموحدين .

ونحن يهمنا في هذا البحث من تآليفه عقيدة المرشدة التي لقيت رواجا كبيراً في حياته وبعد مماته، وتلقاها أئمة العلم بالقبول، وحكموا عليه من خلالها بسلامة العقيدة وصحة المذهب .

ولا نشك أنها كانت من اول ما أملى من تآليفه، ولقن اصحابه من العقيدة على مذهب الامام الاشعري لانها بمثابة المقدمة في هذا الصدد من حيث الاختصار وعدم الاحتواء على الادلة العقلية التي لا يدركها العموم كما في عقيدة التوحيد، ولانها جاءت خالية من كل شبهة، على ما كانت عليه دعوته اولا قبل ان يدعي المهدوية والامامة والعصمة، ويتجرد للعمل السياسي الذي أقام به بناء الدولة الجديدة، وقضى على دولة خصومه المرابطين .

ومن الغريب أن الاشتباه في امر المهدي وعدم التفرقة بين العهد الاول من حياته الذي كان فيه منقطعا للعلم لم يتبلس بشيء من البدع التي اوبقته فيها السياسة، وبين العهد الثاني الذي هو بخلاف ذلك، حمل بعض العلماء على انكار نسبة المرشدة إليه، لانها عقيدة سنية خالصة من البدعة التي كان عليها ابن تومرت. ونسوق القضية بجميع ملابساتها كما وردت في الطبقات الكبرى للتاج السبكي .

قال : « وجدت بخط الحافظ صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي رحمه الله : رأيت بخط شمس الدين الذهبي رحمه الله أنه شاهد بخط سيف الدين احمد بن المجد المقدسي : لما دخلت بيت المقدس والفرنج إذ ذاك فيه وجدت مدرسة قريبة من الحرم

(قلت) اظنها الصلاحية، والفرنج بها يؤذون المسلمين ويفعلون العظائم. فقلت سبحان الله . ترى أي شيء كان في هذه المدرسة حتى ابتليت بهذا . حتى رجعت إلى دمشق فحكى لي أن الشيخ فخر الديـن ابن عساكر كان يقريء بها المرشدة . فقلت بل هي المضلة انتهى ما نقلته من خط العلائي رحمه الله . ونقلت من خطه ايضا : وهذه العقيدة المرشدة جرى قائلها على المنهاج القويم والعقد المستقيم، واصاب فيما نزه به العلي العظيم . ووقفت على جواب لابن تيمية سئل فيه عنها، ذكر فيه أنها تنسب لابن تومرت، وذلك بعيد من الصحة او باطل، لان المشهور أن ابن تومرت كان يوافق المعتزلة في أصولهم وهذه مباينة لهم انتهى » وأطال العلائي في تعظيم المرشدة والازراء بشيخنا الذهبي وسيف الدين ابن المجد فيما ذكراه . فأما دعواه أن ابن تومرت كان معتزليا فلم يصح عندنا ذلك . والاغلب أنه كان أشعريا صحيح العقيدة. اميراً عادلا، وداعيا إلى طريق الحق . وأما قول السيف ابن المجد أن الذي اتفق انما هـو بسبب اقراء المرشدة، فمن التعصب البارد والجهل الفاسد، وقد فعلت الافرنج داخل المسجد الاقصى العظائم فهلا نظر فى ذلك نعوذ بالله من الخذلان . ونحن نرى أن نسوق هذه العقيدة وهي . . ولما ساقها قال : « هذا آخر العقيدة وليس فيها ما ينكره سني » .

هذا كلام السبكي المتعلق بالمرشدة مع نقوله المتضاربة حولها، مدحا وذما . . فأما العلائي فانه مدحها وأبلغ في ذلك لحد أنه أزرى بالذهبي وابن المجد لطعنهما فيها، إلا انه ارتاب في نسبتها لابن تومرت، لانه كان يوافق المعتزلة في اصولهم، وقد رد عليه السبكي في ذلك، وذكر انه كان أشعريا صحيح الاعتقاد .

والمفهوم من كلام العلائي أن شيخ الاسلام ابن تيمية نفسه كان يشك في نسبتها لابن تومرت، ربما لهذه الشائعة عنه من ميله إلى الاعتزال، وهي ليس فيها شيء من ذلك. والجواب عن شكه هذا هو ما اجاب به السبكي عن تشكك العلائي سواء بسواء إلا ان المعروف من مذهب ابن تيمية انه لا يرضى عن هذه العقيدة سواء كانت لابن تومرت او لغيرة.

واما الذهبي وابن المجد فانه لا ينتظر منهما ان يثنيا على المرشدة، ولا ان يقولا فيها غير ما قالاه للخلاف بين الحنابلة والاشعرية الذي كان هو عين الخلاف بين اهل المغرب وابن تومرت، لما ظهر بمذهبه الجديد. وما ألذع ما رد به السبكي قول ابن المجد في المرشدة والبلاء الذي اصيبت به المدرسة بسببها فانه رد يوافق ذلك القول التافه.

لكن اعظم ما يستفاد من كلام السبكي ونقوله هذه، هو أن المرشدة كانت تدرس في مدارس المشرق، ويقوم عليها علماء مثل الامام فخر الدين ابن عساكر شيخ الشافعية في وقته بالشام.

إن هذا مما يبين قيمة هذه العقيدة واهميتها، ويدل على سيرورتها وانتشارها، باعتبارها مقدمة صغيرة فى هذا العلم، وخلاصة مفيدة لمذهب الاشعري رحمه الله. ولا شك أنه قرأها عدد كبير من الطلبة وانتفعوا بها وانه كان عليها املاءات وشروح للعلماء الذين اقرأوها، فان شهرتها التي جعلت جملة من اعلام الاسلام يتحدثون عنها ويبدون آرائهم فيها وفي صاحبها، كيفما كانت هذه الآراء، تعطي انها ملأت فراغا في هذا المقام، وشغلت كثيراً من الناس، مدة غير قصيرة من الزمن.

ويوجد عندنا شرح عليها في كراسة ضمن مجموع، اسمه

لانوار المبينة المؤيدة لمعاني عقد عقيدة المرشدة لمؤلفه ابي زكرياء يحيى بن الشيخ المدرس ابي حفص عمر بن ابي بكر المشهور بالتنسي ثم الهتيني، على ما جاء في طالعته، وهو مغربي على ما يظهر، مما يدل على انها كانت تدرس في المغرب ايضا، لا سيما وهو قد وضعه جوابا لسؤال سائل (1) وهذا ما يقوله في ذلك : « وبعد كسانا الله واياك لباس التقوى، وزحزحنا بمنه عن نار الشهوات والهوى، فانك سألتني ان اقيد لك على كلام الامام ابي عبد الله محمد المهدي رحمه الله تعالى في المرشدة ما يحلو سناءه، ويروق دليله، فأجيبك إلى ذلك مستعينا بالله » وعادة لا يهتم الناس بأي كتاب ويشرحونه إلا إذا كان متداولا مقروءاً ولو بين طبقة خاصة واهل ناحية معينة .

ويقول هذا الشارح بأثر العبارة السابقة : « مما اجمعت (كذا) على صحة هذه العقيدة لا غير وانها مرشدة رشيدة، ولم يترك المهدي احسن منها وسيلة، نفعنا الله واياه (بالاصل وايانا) بعقد عقيدته الجميلة » وقوله هذا يفيد انه لم يكن من الطائفة التي تعتقد المهدي، وقد بقيت هذه الطائفة موجودة إلى زمن اليوسي، وكانت تتمثل في الشيخ عبد الرحمن اللجائي المتصوف المشهور، دفين الجاية واتباعه، على ما بينه اليوسي في محاضراته كما يفيد انه كان يعلم ما طرأ على دعوة المهدي من الجنوح عن السبيل، وما يشوب تآليفه من الشبهة، باستثناء العقيدة المرشدة، فهو يتفق مع علماء المشرق في هذا الامر، ويسلك نفس النهج الذي سلكوه من قبول آثار المهدي التي سلمت من الريبة، وترك ما عداها

1) يشير هذا الشارح الى أن هناك من شرح المرشدة غيره، فقد جاء في أثنائه عبارة تقول : نقل بعض من شرح هذه العقيدة الخ .

اخذاً بمبدإ الاسلام المعبر عنه في الحديث الشريف بهذه العبارة الفذة : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » وهو المبدأ الذي يقضي على التعصب، ويعترف بالحق إذا ظهر .

ويهمنا ان ننقل من هذا الشرح ما كتبه مؤلفه على قول المرشدة : « جميع الخلائق مقهورون بقدرته » وهذا نصه :

(الخلائق هم العوالم المذكورة وغيرهم مما لا يعلمه إلا الله تعالى، وقوله مقهورون بقدرته، اي مغلوبون ادلة لعزة قدرته، والقهار المستولي والقدرة صفته، فهو تعالى قادر بقدرة قديمة، وفي كلام الامام رد على المعتزلة الذين ينكرون صفات المعاني) الخ .

وقد نقلنا هذه العبارة المبينة لكلام ابن تومرت قصداً لتصحيح الخطأ الذي وقع فيه السبكي اثناء ترجمته للمهدي فانه بعد ذلك الدفاع المجيد الذي نفي عنه ما رمي به من الاعتزال (1) عاد فرماه به هو نفسه في الترجمة التي عقدها له في الطبقات قائلا : « ثم صنف لهم تصانيف في العلم، منها كتاب سماه اعز ما يطلب، وفي عقائد على مذهب الاشعري في اكثر المسائل إلا في اثبات الصفات، فانه وافق المعتزلة في نفيها » .

وها نحن اولا، نرى ان المهدي لا ينفي الصفات وانه يقول: جميع الخلائق مقهورون بقدرته، ويعلق شارحه على ذلك فيقول انه رد على المعتزلة الذين ينكرون الصفات . فيظهر ان السبكي لم يتأمل المرشدة على الرغم من كونه اورد نصها في الطبقات، ونفي عنه الاعتزال في رده على العلائي وقال في المرشدة ليس

---

1) سجل السبكي مرة أخرى سلامة المرشدة من الاعتزال في كتابه « معيد النعم ومبيد النقم » إذ صنفها مع عقيدة الطحاوي وعقيدة القشيري وعقيدته هو قائلا إنها جميعا مشتركات في أصول السنة والجماعة .

فيها ما ينكره سني يعني اشعري، فلعله ذهل عن هذا الاتهام الذي ضمله ترجمة المهدي التي هي في نظرنا ترجمة منصفة لو خلت من هذا التناقض (1).

بقي ان نشير إلى ان أبا سالم العياشي نقل في رحلته خلاصة كلام السبكي في الرد على العلائي على أنه من الفوائد التي علقها من الطبقات الكبرى ولم يعقب عليه بكلمة.

ونقول ان اسم المرشدة مأخوذ على ما تعتقد من قول صاحبها في افتتاحها: « اعلم أرشدنا الله واياك ».

وقد وقفنا على ست نسخ من المرشدة تتماثل فيما بينها إلا واحدة منها هي نسخة مجموع أعز ما يطلب وسنبين ما فيها من الخلاف تعليقا، الاولى نسخة الطبقات، الثانية نسخة أعز ما يطلب، الثالثة نسخة الحلل الموشية، فان هذا الكتاب أثبت المرشدة من كلام المهدي، الرابعة نسخة كتاب سعادة الدارين للنبهاني، فانه ايضا أثبتها معجبا بها، وهذه النسخ الاربع كلها مطبوعة، الخامسة نسخة الشرح الذي تحدثنا عنه، وهي أصح النسخ في نظرنا لان الفاظها مفسرة مشروحة، فهي بعيدة عن الخطأ والتصحيف، السادسة نسخة مخطوطة من الحلل الموشية خاصة، فالجموع ست نسخ اثنتان منها مخطوطتان، قابلناها جميعا وأخرجنا منها النص الآتي.

« أعلم أرشدنا الله واياك، انه يجب على كل مكلف أن يعلم أن الله واحد في ملكه، خلق العالم بأسره، العلوي والسفلي،

---

1) وجاء في الشرح أيضا تعليقا على قول المرشدة: « ليس عليه حق ولا عليه حكم » ما يلي: (وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بمراعاة الصلاح والاصلح ووجوب الرزق) ولم ننقله في الصلب لان كلام السبكي قاصر على اتهام المهدي بنفي الصفات.

والعرش والكرسي، والسماوات والارض. وما فيهما وما بينهما، جميع الخلائق مقهورون بقدرته لا تتحرك ذرة إلا باذنه (1) ليس معه مدبر في الخلق، ولا شريك في الملك، حي قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء، يعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، فعال لما يريد، قادر على ما يشاء، له الملك والغنى (2) وله العزة والبقاء، وله الحكم والقضاء، وله الاسماء الحسنى (3) لا دافع لما قضى، ولا مانع لما أعطى، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء (4) لا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا، ليس عليه حق ولا عليه حكم، وكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، موجود قبل الخلق، ليس له قبل ولا بعد، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا أمام ولا خلف، ولا كل ولا بعض، ولا يقال متى كان ولا أين كان، ولا كيف كان (5) كان ولا مكان، كون المكان (6) ودبر

---

1) تختلف هنا نسخة أعز ما يطلب فتقول ليس له قبل ولا بعد الى قوله ولا كل ولا بعض، ثم تقول لا يتخصص في الذهن الى وهو السميع البصير، ثم تعود الى ما هنا من قوله ليس معه مدبر وقد اعتمدنا ما في بقية النسخ .

2) في كل النسخ والغنا بالمد وهو تصحيف .

3) في نسخة الشرح وله الحمد والاسماء الحسنى، وشرح عليها ولكنها زيادة لا توجد في بقية النسخ .

4) سقط من نسخة أعز ما يطلب قوله يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه بما يشاء وهو ثابت في بقية النسخ .

5) سقطت كان من نسخة الطبقات وسقطت الجملة كلها من نسخة النبهاني.

6) في نسخة الطبقات والنبهاني كون الاكوان .

الزمان، لا يتقيد بالزمان، ولا يتخصص بالمكان، ولا يشغله شأن عن شـأن (1) ولا يلحقه وهـم، ولا يكيفه عقـل، ولا يتخيـل في الذهن (2) ولا يتمثل في النفس، ولا يتصور في الوهم، ولا يتكيف في العقل، لا تلحقه الاوهام والافكار، جل عن النظير والشبيه (3) ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير ».

---

1) ثبتـت هذه الجملة فقط في نسخـة الطبقات.

2) في الطبقات وأعز ما يطلب لا يتخصص وفي النبهاني لا ينحصر وفي الحلل لا يتحصل، وآثرنـا ما في نسخة الشرح لدقتها.

3) انفردت النبهانية بهذه الجملة وهي في نظرنا مناسبة ولذلك أثبتناهـا

ابن رشد الفيلسوف فقيهاً

إن الكتابة عن ابن رشد الفيلسوف كثيرة جداً، ومنها دراسات قيمة كتبها مختصون في المادة بحيث أصبحت هذه الناحية من تفكيره وتراثه العلمي متميزة للغاية، ناهيك بما كان لها قديما من أثر بين في توجيه الحياة الفكرية والعلمية في أوربا قبل عصر النهضة.

أما ابن رشد الفقيه فقد بقي بمعزل من عناية الباحثين، ولم تنل ثقافته الفقهية ما تستحقه من الوزن والتقدير، حتى تنوسيت او كادت، وصار وصف ابن رشد بالفقيه يغلب أن يدل على ابن رشد الجد لا على ابن رشد الحفيد صاحبنا. وقد استشعرت ذلك حين كتبت عنوان هذه الكلمة وهممت بتغييره لولا أني اعلم أن البساط يعين المراد.

والحق أن ابن رشد الجد كان إماما من أئمة الفقه المالكي، يؤخذ بقوله فيه، ويعتمد عليه في الفتوى والقضاء، وكتاباه البيان والتحصيل، والمقدمات، من أعظم كتب المذهب وأشهرها عند المالكية، ولم يتردد الشيخ خليل الجندي صاحب المختصر المبين لما به الفتوى في مذهب مالك، أن يجعله أحد اربعة أقطاب ممن يعول على آرائهم في فقه هذا المذهب، وهم

اللخمي وابن يونس وابن رشد والمازري (1)، فهو إذن صاحب مدرسة فقهية ما تزال معتمدة إلى الآن عند أتباع مالك في جميع العالم الاسلامي، ولذلك لا غرو أن يغطي اسمه إذا وصف بالفقيه على اسم حفيده فلا يتبادر إلى الذهن غيره كما لو كان هو الفقيه وحده .

إلا أننا نعلم أن صاحبنا كان ايضا من ائمة الفقه وأعلام المذهب، وأنه لا يقل كفاءة ولا ينزل مكانة عن جده في العلم بأحكام الشريعة وسائر المعارف الاسلامية، ولقد وصفوه بأخص اوصاف جده من أنه كان مفزع الناس في الفتوى وأن الدراية كانت أغلب عليه من الرواية، فضلا، عن كونه ولي قضاء الجماعة بقرطبة مثله، وهو منصب عال يعطي لصاحبه الاشراف على سائر قضاة الاندلس، وربما خوله حق تعيينهم . فنحن نرى أنه في هذا المقام لم يكن بينه وبين جده فارق ما، غير أن الجد كان منقطعا إلى الدراسات الفقهية والنظر في أحكام الشريعة، فخلف ذلك التراث الطائل الذي يعتز به الفقه المالكي، والحفيد كان مشاركا في العلوم العقلية والطبية، فتوزعت اهتماماته، وكان إنتاجه في هذه اكثر واخصب، وإن لم يؤت إنتاجه الفقهي من ضعف مادة او قلة في الجملة .

ولقد جاء في ترجمته عند ابن الابار تبيينا لمنهاج طلبه وميدان تخصصه : أنه درس الفقه والاصول وعلم الكلام . . ومال إلى علوم الاوائل وكانت له فيها الامامة دون اهل عصره، وكان يفزع إلى فتياه في الطب، كما يفزع إلى فتياه في الفقه،

1) ينظر مختصر خليل، المقدمة، ص 1 .

مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب (1)، فهو على هذه المشاركة الواسعة والانفراد من بين اهل عصره بالتقدم في العلوم الكونية، كان الناس لا يستغنون عن فقهه وطلب فتواه في النوازل، وما ذلك إلا لما يعلمونه من رسوخ قدمه في المعرفة بأحكام الشريعة وسداد نظره في مسائلها.

وعليه إذا كانت الدراسات العديدة التي وضعت حوله قد اهتمت بفلسفته وحكمته، وشرحت آراءه وما كان لها من تأثير على الحياة العقلية في العصور الوسطى بأوروبا، وكذلك الناحية الطبية من تراثه وخاصة كتابه الكليات قد نالت حظها من البحث، ولم يبق إلا تراثه الفقهي غير مدروس ولا معتنى به، فإن الواجب يقضي علينا أن نلقي نظرة ولو خاطفة على عمل فيلسوفنا العظيم وطبيبنا النطاسي في ميدان الفقه والتشريع، ونعرف قدر الامكان بجهده الكبير في هذا الصدد فنتمم حلقات البحث في معارفه المتنوعة، ونسد الفراغ الذي بقي في ترجمته من هذه الناحية.

ولاجل أن نحرر الموضوع جيداً، لا بد ان نلم بما كان عليه الوضع الفقهي بالمغرب والاندلس في عهد ابن رشد، نتيجة لقيام دولة الموحدين، لا سيما وهو قد كان على صلة متينة برجال هذه الدولة وعلى رأسهم الخليفتان يوسف بن عبد المومن وابنه يعقوب المنصور.

نحن جميعا على علم بما كان للفقهاء في دولة المرابطين من نفوذ قوي وجاه عظيم ولا نشك في أن ذلك كان من وضع الشيء في محله، وإسناد الامر إلى اهله، فالدولة إسلامية، واحق

1) التكملة لابن الابار ج ل ص 269.

الناس بتولي مناصب الحكم والشورى فيها هم العلماء العارفون بأحكام الشرع، المتفقهون في الدين، تماما كما يتولى مناصب الحكم اليوم في اغلب الدول المدنية رجال القانون واساتذة الحقوق . وكانت الدولة المرابطية قد قامت على اساس مقاومة البرغواطيين ونحلتهم الضالة، ونشر الدين الصحيح فلا غرو ان تلقى بزمام الامور إلى الفقهاء وتبوئهم أعلى مقام .

فلما جاء الموحدون، وكان إمامهم المهدي بن تومرت صاحب دعوة وزعيم فرقة، وقد لاقى الامرين من معارضة الفقهاء ومناهضتهم له، نهجت دولتهم سياسة اخرى من تقريب من قبل دعوتهم وإبعاد الفقهاء عن مراكز المسؤولية . ومن ثم صار الفقه الساذج، اكبره واصغره، لا ينفق لديهم، بل صار يتعرض لمناوأتهم والتشريب عليه وعلى رجاله، وما قضية إحراق كتب الفقه المالكي وأمهات دواوينه بخافية عمن له اطلاع على تاريخهم (1) .

وقصدنا بالفقه الساذج الفقه المجرد من الادلة ومدارك استنباط الاحكام وبأكبره علم التوحيد استناداً إلى تسمية ابي حنيفة له بذلك في كتابه الفقه الاكبر، وبأصغره علم الفروع . فإن الموحدين قاموا بالدعوة لمذهب الاشعري في العقائد وروجوا له، وانتقدوا ما كان عليه المغرب ودولة المرابطين من الاخذ بعقيدة السلف، وسموهم المجسمين وسموا انفسهم الموحدين في مقابل ذلك، ثم صاروا يدعون إلى الاجتهاد والنظر في اصول الاحكام من الكتاب والسنة، وينعون على الفقهاء تقليدهم والتزامهم لمذهب مالك حتى تورطوا في قضية الاحراق لكتب المذهب التي ألمعنا إليها .

1) ينظر كتاب المعجب للمراكشي ص 278،

ومن الاكيد ان ننبه على انهم لم يكونوا يهدفون إلى إحلال مذهب الظاهرية محل مذهب مالك ولا انهم كانوا يأخذون في انفسهم بهذا المذهب كما قال بذلك غير واحد من الباحثين، وقد ابطلنا ذلك بالدليل القاطع في كتابنا النبوغ المغربي، وإنما كانوا من اصحاب النظر والدليل المتمسكين بالمنطق والبرهان، ولذلك اخذوا في العقائد بمذهب الاشعري ومالوا في الفقه إلى إحياء الاجتهاد.

على هذه الحالة عرفهم ابن رشد، وبدافع من اهتمامهم بالعلوم النظرية والعقلية اتصلوا به، إذ كان إماما فيها ومتفرداً بين اهل عصره بإتقانها. وقد حدثنا عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب عن اول لقاء تم بين الخليفة يوسف بن عبد المومن وصاحبنا ابن رشد بتدبير من الفيلسوف ابي بكر بن طفيل، وكان وزيراً ليوسف، فلم تكن مذكراته معه إلا في قضايا الفلسفة ورأى اصحابها في قدم العالم، وكان أن حمله بعد ذلك على تلخيص فلسفة ارسطو وشرح كتبه على ما هو معروف (1).

إذن فابن رشد الفيلسوف هو الذي برز على منصة الدولة، وهو الذي كان على صلة رسمية بالموحدين واما ابن رشد الفقيه فقد كان يشغل منصب القضاء ويفتي الناس فيما يعرض لهم من النوازل التي لا علاقة لها بأحكام المنصب، وهو بمقتضى ذلك فقيه مالكي على مذهب ابيه وجده، ومذهب المغاربة والاندلسيين عموما، إذ كانت نزعة الدولة الاجتهادية، تلك التي تحدثنا عنها لم تستطع ان تهزم مذهب مالك ولا ان تتغلب عليه حتى في

1) انظر كتاب المعجب للمراكشي ص 242.

تولية مناصب الفتوى والقضاء ـ كما حصل ان تغلب هذا المذهب في اوائل ايام الخلافة الاموية بالاندلس على غيره من المذاهب لاصطناع الدولة والتزامها به، وكما حصل في المغرب ايام الادارسة الذين كانوا يأخذون ايضا بهذا المذهب .

ولعل الطريقة التعسفية التى كانوا يفرضون بها وجهة نظرهم هى التي جعلت الفقهاء وجماهير المتمذهبين ينفرون من دعوتهم ويتمسكون باتباع مالك رحمه الله، فإن احب شيء إلى الانسان ما منعا كما يقول الشاعر، وإحراق الكتب لم يكن قط وسيلة لمنع انتشارها بل ربما كان سببا في مزيد الاقبال عليها وتداولها . والنظر الفقهي في ايام الموحدين لم يكن قاصراً عن دراسة اسباب الخلاف المذهبي والخلاف العالي، بل كان متمكنا من ذلك اشد التمكن، ومتعمقا في علم الاصول الذي به تعرف مدارك الائمة، فليس من السهل صرفه عما يأخذ به عن حجة ودليل من الرواية والسماع، ويشرح هذا الموقف مناقشة جرت بين يوسف بن عبد المومن وأحد فقهاء اشبيلية، ابي بكر بن الجد، فيما حكاه صاحب المعجب عنه قال :

« لما دخلت على امير المؤمنين ابي يعقوب اول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي يا ابا بكر أنا انظر فى هذه الآراء المتشعبة التي احدثت في دين الله أرأيت يا ابا بكر المسألة فيها اربعة اقوال او خمسة اقوال او اكثر من هذا . فأي هذه الاقوال هو الحق ؟ وايها يجب ان يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما اشكل عليه من ذلك . فقال لي وقطع كلامي : يا ابا بكر ليس إلا هذا واشار إلى المصحف،

او هذا واشار إلى كتاب سنن ابي داود، وكان عن يمينه، او السيف » (1) .

إن قرقعة السلاح تمنع من حسن الاستماع ولذلك ظل الفقهاء على رأيهم ولو كانوا من المقربين الى الدولة كأبى بكر هذا وصاحبنا ابن رشد، بل إننا نجد ابن رشد يقوم فعلا بتوضيح ما اشكل على الخليفة في كتاب عظيم النفع هو كتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد الذي ذكر فيه اقوال فقهاء الامة من الصحابة والتابعين ومجتهدى الائمة مع بيان مستند كل من الكتاب والسنة والقياس واسباب الخلاف ووجوهه وعلله ومع الترجيح واعتماد الصحيح من النصوص بحيث لم يدع لقائل ما يقول في هذا الباب اعتراضا على هذا المذهب او ذاك واستشكالا لمدرك حكم واستنباط فقه لم يرد فيه نص او اضطربت الرواية المتعلقة به.

وهكذا أثبت ابن رشد أنه لم يكن ضالعا مع الموحدين في موقفهم من مذهب الامام مالك، وان شخصيته الفقهية كانت فوق المساومة، وانه سواء اطلع على مناقشة الخليفة للفقيه ابن الجد او لم يطلع عليها، لم يهب ان يتصدى لرد ما كان الخلفاء الموحدون ومن على رأيهم يوردونه على الفقهاء ويطعنون به في المذهب، وشرح ما خفي عليهم من ذلك، والدفاع عن أئمة الدين وعلماء الملة بعلم وتجرد تام.

وإذا كنا قد سجلنا عدم نجاح الحملة الموحدية على الفقه المالكي، فإننا لا ننكر تأثر هذا الفقه وحملته على الرغم من ثباتهم بروح الدعوة الموحدية القائلة بالرجوع الى الاصول واستنباط الاحكام من الكتاب والسنة فإن الفقهاء في هذا المجال قد راجعوا

1) المعجب للمراكشي ص 279.

خطتهم وأخذوا بطريقة وسط بين الاعتماد على أقوال مقلديهم (بفتح اللام) فقط والاجتهاد المطلق، وصاروا يتلمسون مدارك الاحكام ومآخذ الاقوال التي تنسب لرجال المذهب من مصدريها العظيمين الكتاب والسنة، ويوجهونها ويصححون مستندها إن لم يكن رداً على الخصوم فطلباً للاطمئنان حتى لا يتشوف احد الى ما وراء ذلك أو تعلق بذهنه شبهة من الشبهات .

وأزعم ان ابن رشد فضلا عن تأثره كغيره من الفقهاء بهذه الروح، كان أيضاً متأثراً بثقافته المنطقية ومرانه على الجدل، في مقارنته للمذاهب وتخريجه للاقوال، ولعل ذلك هو ما منعه من أن يكون متعصباً لهذا المذهب او ذاك، فإنه يناقش كل خلاف بروح رياضية نزيهة، وإذا رجح فقهاً على فقه فإنه لا يبدي أي تنطع في ذلك كما هي عادة فقهاء المذاهب، والغالب ان يرى الخلافات المذهبية ناشئة من يسر الشريعة ومرونة قواعدها، فيجعلك تشعر بالاطمئنان لكل المذاهب وتلاشي الخلاف فيما بينها تلاشي الضباب بفعل أشعة الشمس.

ولا يعني هذا تنازله عن مالكيته وعدم قيامه بفقه المذهب كما يطلب من أحد اقطابه، كلا فإنه اول ما يذكر مذهب إمامه ويزيد بذكر اقوال أعلامه المشهورين التي خالفوا فيها الإمام ومداركها ولا يقول في مسألة من المسائل أنه لا يعرف حكمها في المذهب كما يقول ذلك احيانا فيما يتعلق ببعض المذاهب الاخرى، مما يدل على تمكنه من معرفة مذهبه وتضلعه في فقهه . وهو يأخذ على المذهب مخالفته للاصول في بعض المسائل وربما يعلل ذلك بعدم بلوغ النص إلى الإمام او عدم صحته عنده . وكثيراً ما يلاحظ مخالفة المذهب للقواعد التي بني عليها واتخذها

أساسا للحكم وله في العمل الذي هو اصل من اصول مذهب الامام مالك اعني عمل اهل المدينة كلام ضمنه كتابه في اصول (1) الفقه، ولعله هو الذي لخصه في كتاب بداية المجتهد عند الكلام على جمع الصلاة ورأيه فيه وسط، يقبل ويرد بحسب المقامات (2).

فنرى من هذا انه لم يتخل عن مذهب الامام مالك، وأنه كان يأخذ بفقهه ويلتزم باجتهاده مع ما كان عليه من تسامح وسعة أفق، واكثر من ذلك أنه لم يحاول ان يجعل له رأيا مخالفا لفقهاء المذهب، ويوجد مدرسة جديدة فيه كما فعل جده، أدركنا ذلك بالتتبع لكلامه، ورأيناه يصرح به في كتابه بداية المجتهد، اثناء استعراضه للخلاف في نجاسة الارواث حين يقول :

« ولولا أنه لا يجوز إحداث قول لم يتقدم إليه احد في المشهور، وإن كانت مسألة فيها خلاف، لقيل أن ما ينتن منها ويستقذر بخلاف ما لا ينتن ولا يستقذر، وبخاصة ما كان منها رائحته حسنة لاتفاقهم على إباحة العنبر، وهو عند اكثر الناس فضلة من فضلات حيوان البحر، وكذلك المسك، وهو فضلة دم الحيوان الذي يوجد المسك فيه فيما يذكره » (3).

وهذه ملاحظة صائبة منه وهي حرية ان تكون قولا راجحا في المسألة لولا أنه كما رأينا يتحرج من إحداث قول لم يسبق إليه.

وبالطبع انتقد ابن رشد المذاهب الاخرى في عدة مسائل والزم اصحابها بمخالفتهم للقواعد التي اعتمدوها كلما وقعت منهم هذه المخالفة، وهو يعتني بذكر مذهب الظاهرية ولا يذكر إمامه

---

1) ذكره في بداية المجتهد ج لا ص 102.
2) البداية ج ل ص 174.
3) البداية ج ل ص 81.

داود إلا قليلا، بل يقتصر على ذكر ابن حزم، لا ادري ذلك للاعتزاز بأندلسيته ام للاعتداد بقول العلماء لولا ابن حزم لما ذكر داود . والجمهور عنده إنما يعني الائمة الثلاثة مالكا والشافعي وابا حنيفة (1) أما الحديث الثابت فهو ما أخرجه البخاري ومسلم (2) او احدهما . ومن الطريف أنه يعتمد كثيراً في الحديث على صحيح مسلم وهي طريقة المغاربة الذين يفضلون مسلما على البخاري من ناحية الرواية كما هو معروف .

وعلى ذكر الحديث فإن تصرفه فيه يدل على الخبرة والمهارة بخلاف ما قالوا عنه من ان الدراية اغلب عليه من الرواية كما سبق، فنجده يدقق في روايات حديث السجود على الجبهة والانف حتى يذكر انفراد احدها بذكر الجبهة فقط مؤيداً بذلك مذهب مالك، ومستدركا على الحافظ ابي عمر بن عبد البر الذى اقتصر على روايات الجبهة والانف معا (3) . وكذلك نجده يرد على ابن عبد البار في تضعيفه لاحد الاحاديث بأنه وارد في صحيح مسلم (4)، وهذا مع العلم بأن كتاب الاستذكار لابن عبد البر هو مصدره الاول في تحقيق المذاهب ونسبتها إلى اربابها (5) . وقد يبحث في الحديث الثابت من جهة المعنى اعتباراً بالحديث الضعيف (6) وذلك صيرورة منه إلى نقد المتن بعد صحة السند .

---

1) البداية ج ل ص 59 .

2) الهداية ج ل ص 47 و 61

3) البداية ج ل ص 139 .

4) البداية ج ل ص 212 .

5) البداية ج ل ص 88 .

6) البداية ج ل ص 131.

والامثلة على مشاركته في علم الحديث واخذه بـه، غير هذه كثيرة فلا نطيل بها .

وينتفع ابن رشد بمعلوماته الطبية والطبيعية والفلكية في الترجيح والاختيار للاقوال والمذاهب وبناء الفقه على النظر العلمي الصحيح وذلك كما في تعقيبه على اختلاف الفقهاء في استمرار العادة الشهرية مع الحمل عند النساء حيث قال : « وسبب اختلافهم في ذلك عسر الوقوف على ذلك بالتجربة واختلاط الامرين، فإنه مرة يكون الدم الذي تراه الحامل دم حيض، وذلك إذا كانت قوة المرأة وافرة والجنين صغيراً، وبذلك امكن ان يكون حمل على حمل على ما حكاه بقراط وجالينوس وسائر الاطباء إلى آخره (1)، وكتعليله لاختلافهم في نجاسة عظام الميتة وشعرها بأن مرجعه إلى فقد الحس والنمو، فمن قال ببقائهما فيهما لم يحكم بالنجاسة (2)، وكرده على قول الخليل بن احمد في الشفق بأنه لا يثبت بالقياس والتجربة (3)، وكقوله في مسألة تعجيل دفن الميت أن ذلك في غير المرضى بأمراض مخصوصة حتى لقد قال الاطباء إن المسكوتين لا ينبغي ان يدفنوا إلا بعد ثلاث » (4)، وهكذا أفادنا الحكم، وكلمة المسكوتين أي الموتى بالسكتة القلبية.

ومسائله من هذا الباب كثيرة، وتقدم منها قوله في نجاسة الارواث، ومن الجدير بالذكر أنه يرى العمل بالحساب لاثبات إهلال الشهر، ويقول إن سبب اختلاف العلماء في ذلك هو ترك

---

1) البداية ج ل ص 53 .
2) البداية ج ل ص 78.
3) البداية ج ل ص 96 .
4) البداية ج ل ص 284.

اعتبار التجربة فيما سبيله التجربة والرجوع إلى الاخبار في ذلك، وأورد حديث صوموا لرؤية الهلال وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاقدروا له، وقال إن الجمهور اول قوله فاقدروا له بما ورد في رواية اخرى فأكملوا العدة ثلاثين، وغيرهم يقول إن معنى التقدير له هو عده بالحساب (1) .

واحسب أن هذه النظرة القصيرة قد اعطتنا من سمات فقه الرجل ما يجعلنا على علم بعلو مكانته بين الفقهاء وأنه صاحب نظر واستدلال إلى كونه صاحب نقد ورواية، وأنه ينحو منحى التيسير والتسهيل اخذاً بمبدأ الشريعة السمحة فى نفي الحرج وترك التشديد وأنه إن لم يكن صاحب مدرسة في الفقه، فإنما ذلك لتحرجه من ان يزيد في طين الخلاف بلة، وإلا فهو قادر على ان يجتهد كاجتهاد جده في دائرة المذهب، واجتهاد غيره من الفقهاء الكبار، وتركه لذلك مما يدل على قوة تدينه وشدة تمسكه باتباع السلف والقدوة الحسنة .

وذلك كله مع سعة الصدر وعدم التنطع كما نبهنا عليه سابقا . ويعجبني كلامه في مناقشة مذهب من يقول بكفر تارك الصلاة اعتماداً على ظاهر الاحاديث الواردة في ذلك، فهو يخرجها على ان المراد من يتركها متعمداً مستحلا لذلك، ومع ذلك فهو لا يرى قتله كفراً ولا حداً، لانه لا يحل دمه إلا بإحدى الثلاث المنصوص عليها في الشرع، وهذه ليست منها . واما مجرد الترك فلا يكون صاحبه كافراً إلا على مذهب من يكفر بالذنوب يعني المعتزلة، وهو قول لا يأخذ به اهل السنة . وهذه خلاصة كلامه، ولولا طوله لنقلتها فلينظر في محله (2) .

1) البداية ج ل ص 91.
2) البداية ج ل ص 226.

مع هذه اللمحة عن فقه ابن رشد وثقافته القانونية، ينبغي ان نذكر فلسفته الالهية وموقفه من الشريعة بعامة، فإن لهما علاقة متينة بالايمان والفكرة الدينية في الاسلام، وكتاباه في هذا الغرض وهما : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، والكشف عن مناهج الادلة في عقائد الملة، اشهر من ان يعرف بهما، وعليهما وعلى كتابه « تهافت التهافت » قامت شهرته كفيلسوف إسلامي عظيم، وفق لاول مرة وبنجاح كبير بين أغراض الفلسفة والدين، ورد على القائلين بتناقضهما واثبت فكراً وعملا بسيرته التي لا يتطرق إليها الشك أن الفيلسوف يمكن ان يكون مؤمنا صادقا ومتمسكا بقواعد دينه لحد ان يصير قدوة فيه .

وهذا المقصد الذي انعم درسا وقتل بحثا ليس من نوع كلمتنا هذه . ولكنه ينطوي على موقف نعتبره من تتمة الكلام على فقه ابن رشد وإمامته الدينية وهو معارضته لدعوة الموحدين في اتجاهها العقدي كمعارضته لها في اتجاهها الفقهي، ونحب ان نشير له باختصار توفية لحق الموضوع .

والحقيقة أنه ليس معارضة بمعنى الكلمة، ولكنه يؤول إليها، فإن التصدي للرد على الغزالي ونقد كتابه التهافت مع ما كان له من مقام عظيم في نفوس الموحدين واعتباره الآذن لزعيمهم المهدي بن تومرت بالقيام على المرابطين مع ما يدعي له من القراءة عليه والاخذ عنه، لا يمكن ان يعد إلا استمرار للحرب التي شنها الفقهاء على الغزالي وكتبه في الدولة السابقة، وليس ذلك مما يرضي عنه الموحدين والمتعصبون للغزالي على العموم . هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإن نقد ابن رشد للاشاعرة

في قضية المتشابه ودليل الوجود وغيرهما ومذهبهم هو مذهب الموحدين في العقيدة على ما قدمناه، دعوا إليه وألزموا الناس به وحاربوا المرابطين عليه هو ايضا من المجازفة في الخلاف على الدولة ويعتبر شجاعة أدبية يقل لها النظير في عصره.

ولعل ذالك مما وطد سمعته العلمية، ورفع مقامه الديني عند الناس، وإن كان من الوجهة السياسية لا بد ان يخلف آثراً في نفوس الدولة، ويحسب له في المخالفات التي اخذت عليه عند امتحانه.

المهم أن الرجل كان بوجه ولا يوجه، وكان إماما في الفقه كما كان إماما في الفلسفة، وإذا قلنا إماما في الفقه فإن ذلك يعني إماما في الدين، لان الفقه في الاسلام من الدين، وكانت له غيرة على الحكمة والشريعة معاً هي التى جعلته طول حياته يقف موقف الدفاع عنهما وذلك هو سر عظمته رحمه الله.

العمـــل

هـذه القاعدة المحكمة في مذهب الامـام مالـك

عرف مذهب الامام مالك بالوسطية بين الحرفيين المتمسكين بظاهر النصوص، وأصحاب الرأي الذين لم يكن للنقل ولا للنص عندهم أهمية كبيرة. وهذا المنحى في التفقه والاجتهاد يدل على حصافة فكر وبعد نظر، عرفهما المتقدمون للامام مالك وأقروا له بهما، ويعرفهما المتأخرون لـه ويقرون له بهما، حتى اننـا لنجـد أتباع المذاهب الاخرى فـي فجر النهضة ومطلع هذا القرن، عنـد تدوين الفقه ووضع سجلات الاحكام يفزعون الى الاخذ بمذهبه في عدة مسائل يعتبر فيها المخرج من الضيـق والحل للمشكل، بحكم مـا فرضه التطور من أقضية وأوضاع، بل اننا لنجد رجال القانون والمشرعين حتى من غير المسلمين ينوهون بأصالة المدرك الاجتهادي في الفقه المالكي ويعتمدونه في كثير من الاحكام .

وهناك كلمة اشتهرت بين فقهائنا وكثيراً ما يرددونها في سياق الحديث عن سماحة هذا المذهب ويسره، وهي قولهم : « مذهب مالك أوسع من مصر والشام والعراق، الا في النكاح

والعتق والطلاق. وإذا كان لنا ان نفسر هذه الكلمة حسب ما تدل عليه من مقارنة بين المذاهب، فاننا نرى أنها تومىء - فيما يبدو - الى مذهب الامام الاوزاعي (الشام) ومذهب الامام الشافعي (مصر) ولمذهب أبي حنيفة (العراق) . ثم هي فيما استثنته من الابواب الثلاثة، لا تعني ضيق المذهب المالكي بقدر ما تعني أخذه بالاحتياط في هذه الابواب وتحريه للسداد فيما يتعلق بقضايا الزوجية وحرية الرقيق فهو على كل حال وفي هذه الابواب أيضا، أوفق المذاهب وأكثرها اعتبارا لمصلحة الجماعات والافراد .

ولا نشك في أنه مدين بذلك لمرونة قواعده، وعدم تقيده الا بما يحقق مقصد الشريعة الغراء من درء المفاسد وجلب المصالح، فهو اذا اشتبه الامر بحكم العقل في النقل ليصل الى مراد الشارع، وربما خالف النقل اذا كان هناك ما يعارضه من واقع لا يصح تجاهله، والنقل غير متواتر. ومن هنا جاءت قاعدة العمل المحكمة في المذهب على نطاق الاجتهاد المطلق والاجتهاد المذهبي كما سنرى فيما بعد، وعلى ما نقل عن أبي محمد صالح عالم فاس الشهير، فان هذه القاعدة تأتي بعد القياس مباشرة في ترتيب الادلة التي بني عليها الامام مالك مذهبه، ولكن ذلك فيما اذا لم تكن السنة من خبر الآحاد، والعمل على خلافها فانه حينئذ يقدمه على دليل السنة، ويأتي بعد دليل الكتاب في الترتيب، أي أنه يقارضها ويحل محلها. والمقصود بالعمل هنا عمل أهل المدينة كما لا يخفى.

ولالقاء الاضواء على هذه القاعدة، والتعريف بعمل أهل المدينة، ننقل ما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية في صحة أصول مذهب أهل المدينة، فانه أشبع المسألة بحثا وتحقيقا، وهو مع ذلك غير متهم بالتحيز او التعصب للمذهب لانه ليس من أتباعه .

قال رحمه الله :

«مذهب أهل المدينة النبوية، دار السنة، ودار الهجرة، ودار النصرة اذ فيها سن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم سنن الاسلام وشرائعه. واليها هاجر المهاجرون الى الله ورسوله، وبها كان الانصار (الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم) . . . مذهبهم في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أصح مذاهب أهل المدائن الاسلامية شرقاً وغرباً، في الاصول والفروع .

وهذه الاعصار الثلاثة هي أعصار القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من وجوه : « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم » .

وبعد ان تبسط في الكلام على هذا الحديث من حيث الرواية والدراية قال :

« وفي القرون التي أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مذهب أهل المدينة أصح مذاهب أهل المدائن، فانهم كانوا يتأسون بأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من سائر الامصار، وكان غيرهم من اهل الامصار دونهم في العلم بالسنة النبوية واتباعها، حتى انهم لا يفتقرون الى نوع من سياسة الملوك، وان افتقار العلماء ومقاصد العباد اكثر من افتقار اهل المدينة، حيث كانوا اغنى من غيرهم عن ذلك كله بما كان عندهم من الآثار النبوية التي يفتقر الى العلم بها واتباعها كل احد .

ولهذا لم يذهب احد من علماء المسلمين الى ان اجماع اهل مدينة من المدائن حجة يجب اتباعها، غير المدينة، لا في تلك الاعصار ولا فيما بعدها، لا إجماع اهل مكة ولا الشام ولا العراق،

ولا غير ذلك من امصار المسلمين، واما المدينة فقد تكلم الناس في اجماع اهلها، واشتهر عن مالك واصحابه ان اجماع اهلها حجة، وان كان بقية الائمة ينازعونهم في ذلك. والكلام انما هو في اجماعهم فى تلك الامصار المفضلة واما بعد ذلك فقد اتفق الناس على ان اجماع اهلها ليس بحجة إذ كان في غيرها من العلماء ما لم يكن فيها » .

وبعد كلام طويل عاد الى أصل المسألة فقال :

والتحقيق في مسألة اجماع أهل المدينة أن منه ما هو متفق عليه بين المسلمين، ومنه ما هو قول جمهور أئمة المسلمين، ومنه ما لا يقول به الا بعضهم، وذلك أن اجماع أهل المدينة على أربع مراتب:

الاولى:

ما يجري مجرى النقل عن النبي صلى الله وسلم، مثل نقلهم لمقدار الصاع والمد وكترك صدقة الخضراوات، والاحباس، فهذا مما هو حجة باتفاق العلماء . أما الشافعي وأحمد وأصحابهما فهذا حجة عندهم بلا نزاع، كما هو حجة عند مالك وذلك مذهب أبي حنيفة واصحابه. قال ابو يوسف - وهو اجل اصحاب ابي حنيفة، واول من لقب قاضي القضاة - لما اجتمع بمالك وسأله عن هذه المسائل واجابه مالك بنقل اهل المدينة المتواتر، فرجع ابو يوسف الى قوله، وقال: لو رأى صاحبي مثل ما رأيت لرجع مثل ما رجعت.

المرتبة الثانية:

العمل القديم بالمدينة قبل مقتل عثمان بن عفان فهذا حجة فى مذهب مالك وهو المنصوص عن الشافعي. قال في رواية يونس ابن عبد الاعلى: اذا رأيت قدماء أهل المدينة على شيء فلا تتوقف

في قلبك ريبا أنه الحق، وكذا ظاهر مذهب أحمد أن ما سنه الخلفاء الراشدون فهو حجة يجب اتباعها . . والمحكي عن أبي حنيفة يقتضى أن قول الخلفاء الراشدين حجة، وما يعلم بأهل المدينة عمل قديم على عهد الخلفاء الراشدين مخالف لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

المرتبة الثالثة:

إذا تعارض في المسألة دليلان كحديثين وقياسين، جهل أيهما أرجح، وأحدها يعمل به أهل المدينة، ففيه نزاع، فمذهب مالك والشافعي أنه يرجح بعمل أهل المدينة، ومذهب أبي حنيفة لا يرجح بعمل أهل المدينة. ولاصحاب أحمد وجهان أحدهما - وهو قول القاضي أبي يعلى وابن عقيل - أنه لا يرجح، والثاني وهو قول ابن الخطاب وغيره، أنه يرجح به قبل: هذا هو المنصوص عن أحمد. ومن كلامه قال إذا رأى اهل المدينة حديثا وعملوا به فهو الغاية. وكان يفتي على مذهب أهل المدينة ويقدمه على مذهب أهل العراق . . . وكان يكره أن يرد على أهل المدينة كما يرد على اهل الرأي، ويقول انهم اتبعوا الاثار .

فهذه مذاهب جمهور الائمة توافق مذهب مالك في الترجيح لأقوال أهل المدينة .

وأما المرتبة الرابعة:

فهي العمل المتأخر بالمدينة، فهذا هل هو حجة شرعية يجب اتباعه أم لا؟ فالذي عليه أئمة الناس أنه ليس بحجة شرعية. هذا مذهب الشافعي واحمد وأبي حنيفة وغيرهم. وهو قول المحققين من أصحاب مالك. كما ذكر ذلك القاضي عبد الوهاب في كتابه

أصول الفقه، وغيره. ذكر ان هذا ليس اجماعا ولا حجة عند المحققين من أصحاب مالك، وربما جعله حجة بعض أهل المغرب من أصحابه.

قلت : ولم ار في كلام مالك ما يوجب جعل هذا حجة، وهو في الموطأ انما يذكر المجمع عليه عندهم، فهو يحكي مذهبهم، وتارة يقول الذي لم يزل عليه اهل العلم ببلدنا، يصير الى الاجماع القديم، وتارة لا يذكر شيئا، ولو كان مالك يعتقد ان العمل المتأخر حجة يجب على جميع الامة اتباعها وان خالفت النصوص، لوجب عليه ان يلزم الناس بذلك حد الامكان، كما يجب عليه ان يلزمهم اتباع الحديث والسنة الثابتة التي لا تعارض فيها وبالاجماع وقد عرض عليه الرشيد او غيره ان يحمل الناس على موطأه فامتنع من ذلك وقال : ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الامصار وانما جمعت علم أهل بلدي او كما قال.

« وإذا تبين ان اهل اجماع المدينة تفاوتت فيه مذاهب جمهور الائمة علم بذلك ان قولهم اصح اقوال اهل الامصار رواية ورأيا، وانه تارة يكون حجة قاطعة، وتارة يكون حجة قوية، وتارة مرجحا المدليل، اذ ليست هذه الخاصية لشيء من امصار المسلمين (1).

انتهى كلام شيخ الاسلام باختصار كثير اعتباراً بما هو من صميم الموضوع لا غير. ومن غير العسير ان نستخرج منه الحقائق التالية :

1 ـ ان مذهب اهل المدينة على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم هو اصح مذاهب اهل الامصار الاسلامية في الاصول والفروع.

---

1) رسالة صحة أصول مذهب أهل السنة لشيخ الاسلام ابن تيمية . طبعة مصر . صفحات : 17 ـ 20 ـ 23 ـ 26 ـ 27 ـ 28 .

2 ـ انه لم يقل احد بحجية مذهب أهل مصر من الامصار، كما قال جمهور الائمة بحجية مذهب اهل المدينة وان اختلفوا في بعضه.

3 ـ ان مذهب اهل المدينة على اربع مراتب، حجة باتفاق، وحجة قوية، وحجة مرجحة للدليل، والرابعة حجة عند بعض اهل المغرب من اصحابه.

ونبادر فنسجل ما يتضمنه هذا الكلام من ان الاخذ بعمل اهل المدينة ليس خاصا بالامام مالك، بل ان غيره من الائمة قد اخذ به ايضا او بما ثبت عنده منه على الاقل. ثم نلفت النظر الى ان ما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية في مذهب اهل المدينة على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من انه اصح مذاهب اهل الامصار باطلاق، يستلزم ان مذهب مالك اصح المذاهب، ونعني ما قال به هو لا اصحابه الذين اتوا من بعده، وذلك لانه رحمه الله كان من هذا الجيل، جيل تابع التابعين باتفاق، وان قيل بأنه من التابعين، ولكنه لا يصح. وعلى كل حال فما اخذ به من عمل اهل المدينة انما كان من مذهب الجيل الذي حكم شيخ الاسلام بأنه اصح مذاهب اهل الامصار. وبعد هذا نلاحظ على شيخ الاسلام انه يعبر كثيراً باجماع اهل المدينة، والمقصود هو مذهبهم وعملهم . . . ولعله تأثر بأقوال اهل المذاهب المعارضة لمالك في اخذه بعمل اهل المدينة، فان كثيرا منهم زعموا ان مالكا يعتبره اجماعا، بل ان بعضهم نسب اليه انه يرى اتفاق الفقهاء السبعة بالمدينة اجماعا، وهذا تقول باطل وزعم غير صحيح، فان الاجماع عنده كالاجماع عند غيره، وهو دليل مستقل يأتي بعد دليلي الكتاب والسنة، فيجب التنبيه لذلك وحمل كلام الشيخ ابن تيمية كلما عبر باجماع اهل المدينة على مذهبهم وعملهم لا اقل ولا أكثر.

هذا والذي تقرر عند المالكية ان عمل اهل المدينة اما ان يكون امرا لا يخالفهم فيه احد، فهذا حجة عند الجميع وهو المرتبة الاولى في كلام ابن تيمية، ويتعين ان يحمل على ما ثبت من طريق النقل، وهو الذي رجع اليه أبو يوسف لما ناظره مالك وقال لو رأى هذا صاحبي (يعني ابا حنيفة) لرجع اليه. واما ان يكون مما اجمعوا عليه ولكن يوجد من يخالفهم فيه، فهذا حجة عندهم يقدم على خبر الواحد لانه اقوى منه بحكم انه كالمتواتر، وقد قال ربيعة : رواية الف خير من رواية واحد، وقد نقل مالك في موطئه اجماع أهل المدينة على نيف واربعين مسألة (1) . واما ان يكون اجتهادا منهم واستدلالا، فهذا اختلفت فيه كلمة فقهائهم ومعظمهم على انه ليس بحجة، وينبغي ان يحمل عليه كلام ابن تيمية في المرتبة الرابعة .

ونلمح هنا الى رأي لنا في تقديم مالك لعمل اهل المدينة على الخبر الصحيح الذي يروي عن طريق الآحاد، فانا نرى انه ذهاب منه الى وجوب النظر في متن الحديث كما ننظر في السند، وان متن الحديث إذا وجد ما يعارضه من اصول وحقائق ثابتة مسلمة، وكان من رواية الآحاد، اي مما لم يتواتر ويعلم بالضرورة انه من الدين وعمل السلف فانه يمكن ان يوضع موضع البحث ويتوقف العمل به الى ان يبت فيه من طرف أهل العلم، لا سيما مع اجماع علماء الحديث على ان الحكم بالصحة او الضعف على حديث ما، انما هو بحسب غلبة الظن وما تعطيه القواعد، والا فقد يكون الصحيح هو الضعيف والعكس بالعكس، ومما يستأنس به لهذا

---

1) الفكر السامي ج 2 . طبع تونس . ص 166 .

الرأي ما روى عن ابن المعذل انه قال : سمعت انسانا سأل ابن الماجشون : لم رويتم الحديث ثم تركتموه ؟ ، فقال : ليعلم انـا على علم تركناه ولا يخفى ان كثيرا من الباحثين المعاصرين مستشرقين وغيرهم، قد لاحظوا على علماء الحديث انهم لم يتناولوا متون الاحاديث بالنقد والتصحيح كما تناولوا اسانيدها، فاذا كان ما رأيناه في قاعدة العمل هذه وتقديم مالك لها على الخبر الصحيح من رواية الآحاد بموجبه، صحيحا، فانه يكون محاولة اولى وسابقة هامة في هذا الباب يمكن الرجوع اليها والاعتماد عليها .

ونكتفي بهذا القدر في الكلام على عمل اهل المدينة الذي كان حجة وقاعدة محكمة عند الامام مالك، من جملة الحجج والقواعد التي بني عليها مذهبه واجتهاده، وهو اجتهاد مطلق كما لا نحتاج ان نقول، منتقلين الى الكلام على عمل غيرهم من اهل الامصار التي تأثر اهلها من اتباع مذهب مالك بنظريته هذه، فجعلوا من العمل عندهم اصلا من اصول الفقه وقاعدة يرجع اليها عند الاجتهاد، ولكن على صعيد المذهب، وهذه الامصار هي افريقيا والمغرب والاندلس. فهو غير معروف في المشرق او غير معمول بـه عند فقهاء المالكية من اهله .

واصله ان يحكم احد القضاة او يفتي احد المفتين ممن ثبتت عدالته ونزاهته مع العلم والمعرفة، بقول من أقوال علماء المذهب وان كان ضعيفا أو مهجورا، لان هذا المفتي او ذلك القاضي ما اختار هذا القول إلا لاعتبار خاص كاعتبار ظروف القضية وأحوال المتداعين والمستفتين وما يرجع الى عوائدهم وأعرافهم، فوجد ان ذلك القول اكثر انطباقا وأشد ملاءمة للمسألة مما عداه وان كان غير قـوي ولا مشهور وحجة الفقهاء في هذا الباب قول عمر بـن عبد العزيـز: تحدث

للناس أقضية بقدر ما احدثوا من الفجور، مع ما انضاف الى ذلك من فائدة رفع الخلاف في المسألة التي جرى بها العمل والتي يكون فيها قولان أو أقوال متعددة في المذهب، اذ أن حكم الحاكم يرفع الخلاف على ما هو معروف .

ولكن لابد للعمل من ان تتوفر فيه شروط جمعها العلامة سيدي محمد كنون بقوله :

والشرط في عملنا بالعمل ثبوته عن قدوة مؤهل
معرفة الزمان والمكان وجود موجب الى الاوان

فالشرط الاول ان يعرف من حكم أو أفتى به هل هو من أهل العلم وقضاة العدل ام لا ؟ والشرط ان يعرف الزمان والمكان اللذان عمل به فيهما، ولذلك يقال هذا من عمل أهل قرطبة مثال أو عمل أفريقية أي القيروان ونحوها .

والشرط الثالث : ان يتكرر موجبه، فاذا انتفى فلا عمل عليه، لان الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما .

وعلى كل حال فهو فسحة من فسح الشريعة الاسلامية التي تدل على مزيد استعدادها للتطور وصلاحيتها لكل زمان ومكان وقابليتها للتجديد والاجتهاد، ولكن مع مراعاة الشروط المذكورة، فاذا شذ عنها فاصطبغ بصبغة الغرض والشهوة، فان العلماء يردونه ولا يقبلونه ويكونون جميعا إلبا عليه .

ثم هذا العمل قسمان : عمل عام وهو الذي لا يتقيد ببلد دون آخر، وانما تواطأ عليه فقهاء الامصار في افريقية والمغرب والاندلس، ويعرف من كتبهم وفتاويهم، وهذا قد اعتنى بجمعه ونظمه العلامة ابو عبد الله محمد ابى القاسم الفيلالي، ثم شرح ذلك النظم

بشرح مقيد . وهو مشهور مطبوع طبع حجر بفاس، ويعرف بين الطلبة بالعمل المطلق .

وعمل خاص مقيد باقليم معين أو مدينة معروفة كعمل اهل فاس، وهو الذي ذكره العلامة أبو الحسن علي بن قاسم الزقاق في لاميته بقوله :

وفي البلدة الغراء فاس، وربنا يقي أهلها من كل بأس تفضلا
جرى عمل باللائي تأتي كماجرى بأندلس بالبعض منها فأصلا
لما قد فشا من قبح حال وحيلة فيخسا الذي للغى يبغي توصلا

فأشار الى ان العلة في الحكم بالعمل هو تفادي احتيال المتداعين وما يتخذونه من وسائل للوصول الى أغراضهم وان كانت باطلة . وذلك كما في عدة المطلقة التي هي ثلاثة قروء فجرى العمل بجعلها ثلاثة اشهر، لان كثيراً من المطلقات يستعجلن الزواج فيدعين انقضاء القروء الثلاثة، فعوملن بنقيض قصدهن ولم يحكم لهن بانقضاء العدة الا بعد مرور ثلاثة أشهر على طلاقهن إذ كان الغالب على أكثر النساء ان يحضن مرة في الشهر، فجمع بين اصل العدة والاحتياط لمراد الشرع في هذا العمل.

والزقاق وان كان أول من جمع مسائل عمل أهل فاس، الا انه لم يذكر منها الا ثمان عشرة مسألة، وقد تصدى بعده لجمعها العلامة سيدي عبد الرحمن الفاسي ونظمها في رجز يعرف بالعمل الفاسي، وانهاها الى نحو ثلاثمائة مسألة، واشار الى ما ذكره الزقاق منها بقوله :

وعد في اللامية الزقاق منها ثمان عشرة تساق

وقد شرح نظمه هذا بشرح هام، كما شرحه العلامة أبو القاسم

العميري، والعلامة سيدي المهدي الوزاني، ووالدنا سيدي عبد الصمد رحمهم الله جميعا، وشرحا الوزاني والوالد مطبوعان، الاول بفاس والثاني بمصر.

وللعلماء على بعض مسائل العمل اعتراض لضعف مستندها، فقد كتب في ذلك العلامة ابو العباس احمد بن عبد العزيز الهلالي في شرحه على المختصر الخليلي فذلكة جامعة يحسن الاطلاع عليها، ولكن ذلك لم يمنع ان يستمر العمل والحكم بهذه المسائل حتى صار من التقاليد المعروفة ان ظهير السلطان في المغرب اي المنشور الذي يتولى القاضي بموجبه ويسند اليه الفصل بين الخصوم، ينص على وجوب الحكم بما هو المشهور في مذهب مالك او ما جرى به العمل. ومدونة الاحوال الشخصية التي صدرت في العهد الجديد تأخذ بهذه المسائل ولا تخالفها الا فى القليل منها.

وخلاصة القول ان العمل في مذهب الامام مالك قاعدة اصيلة محكمة في كثير من الاحوال والنوازل، وعلماء المذاهب الاخرى ان كانوا لم يعرفوا منها الا عمل اهل المدينة، فان علماء المالكية قد طردوا قاعدة العمل، وخصوصا في بلاد المغرب، فطبقوها كما رأينا في الكثير من مسائل القضاء والفتوى، حتى صارت عندهم تكون جانبا من فقه المعاملات خصصوه بالتأليف. ولقد كنت مرة أتذاكر مع البروفسور ميو وكان قد رجع من مؤتمر القانون الدولى الذي عقد بلاهاي، فقال لى: أتدري اننا قررنا فى المؤتمر اعتبار الفقه الاسلامي مصدرا أوليا من مصادر القانون الدولى ؟ وقال لى أيضا: ان الفقه المالكي، ولاسيما فى المغرب، قد بلغ الى الذورة من الاصالة والشمول.

وانكم في المغرب بمسائل العمل قد برهنتم على تفتحكم

وحللتم مشاكل عويصة كما في مسألة بيع الصفقة التي نعاني منها في أوربا ما نعاني، فكم من قصور شاهقة أصبحت عرضة للتلف، او يستبد بها احد الشركاء ولا يمكن للباقي من ملاكها ان يفعلوا شيئاً . . ولابد أننا سنأخذ بمسألة بيع الصفقة في يوم ما، فهذة نظرة رجل من رجال القانون الاجانب الى مسألة العمل تدل على قيمتها التشريعية العظيمة والحق ما شهدت به . . .

وقبل ختم هذه الكلمة أحب أن أشير الى ما سبق لي ذكره قبل سطور، وهو أن علمائنا طبقوا قاعدة العمل في مسائل القضاء والفتوى، وصارت عندهم تكون جانبا من فقـه المعاملات وانا أؤكد هذا الكلام واقصد انهم لم يتجاوزوا بها هذه الدائرة الى دائرة فقه العبادات كما في قاعدة عمل اهل المدينـة عنـد الامام مالك، فهو فرق لا بد ان يلاحظ بين العملين .

وباللـــــــه التوفيق

دور علماء المغرب فى الدعوة الى الله قديما وحديثاً

يقول الله تبارك وتعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : يقول تعالى ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفلحون، قال الضحاك هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة يعنى المجاهدين والعلماء. وقال أبو جعفر الباقر : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولتكن منكم أمة يدعون الي الخير ثم قال : « الخير اتباع القرآن وسنتي » رواه ابن مردويه. والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الامة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد فرد من الامة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان، وفي رواية « وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » انتهى كلام ابن كثير.

من هذه الآية الكريمة كان منطلق الدعاة الى الله في الاسلام، منذ فجر الاسلام، إنها أوجبت الدعوة على الامة، على المؤهلين منها العارفين بما تكون الدعوة إليه وهو الكتاب والسنة، فلم يسعهم إلا القيام بهذا الواجب لانه في حقهم بمثابة الصلاة والصيام وغيرهما من الفروض، وإن فرطوا فيه كانوا آثمين هم وسائر الامة على قاعدة الفرض الكفائي، يأثمون هم لعدم قيامهم بهذا الواجب ويأثم سائر الامة لانهم يقعون في المخالفات بسبب عدم الامر والنهي، إلا من استنكر ذلك بقلبه واحتمى منه، وهو أضعف الايمان.

وما أحسن ما فسر به ابن كثير مقاصد الآية، فالمراد هو قيام جماعة مخصوصة بهذا الواجب لا كل الناس، وإلا صار الامر فوضى. وربما انقلب الحال فوقع الامر بالمنكر والنهي عن المعروف كما نشاهد ذلك في كثير من الاحوال.

ثم الدعوة لا تكون لكل ما ينعق به الناعقون، ويتبجح به المتبجحون، ولو سموه بأسماء مغرية ونسبوه الى من يزعمونهم قادة الفكر في العالم، فالعالم لم يزل في الضلال وإنما أنقذته دعوات الانبياء والمرسلين، ولذلك بين المفسر ما تكون الدعوة إليه بحديث ابن مردويه، وهو الكتاب والسنة، وبين كذلك الدعاة بقول الضحاك: هم خاصة الصحابة، يعني في العهد الاول، وخاصة الرواة يعني فيما بعده من العهود، وزاد المفسر فبين المراد بهم بقوله: يعني المجاهدين والعلماء، وهي كلمة توزن بالذهب لانها وضعت الامر في نصابه، فالمجاهدون هم الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا وهم أشرف الدعاة وأول من يدخل في عداد هذه الآية التي أمر الله عز وجل بقيامها ويدخل فيهم بالاولوية

المدافعون عن الارض المغتصبة من أراضي المسلمين؛ والعلماء هم العارفون بالكتاب والسنة والمنكر والمعروف بحسب مـا تنص عليه الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة لاكل من هب ودب وزعم أنـه من العلماء فربما جعل البدعة سنة والسنة بدعة ! . . .

إلى هذه الـآية المؤسسة المشرعة للدعوة، هناك آية أخرى مكيفة وموجهة لها، وهي قوله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) قال القرطبي : هذه الآية نزلت بمكة في وقت الامر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو الى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون الى يوم القيامة. فهي محكمة في جهـة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الاحوال من الكفار ورجي ايمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة، والله أعلم، وقال ابن كثير : يقول تعالى آمراً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق الى الله بالحكمة، قال ابن جرير وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة أي بما فيـه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله وجادلهم بالتي هي أحسن أي من احتاج منهم الى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي إحسن إلا الذين ظلموا منهم) الآية فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما الى فرعون في قوله : (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) .

هذا دستور الدعوة في الاسلام، مأخوذاً من القرآن الكريم،

وهو مما ينطبق عليه قوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا) فكل من حاد عنه زل، وعدم التزام المسلمين به هو الذي يشيع بينهم الفرقة، فاهيك بفشل الدعوة وعدم ايتائها ثمراتها المطلوبة، ولقد شهدنا أحد الدعاة الكبار الى التوحيد وكان عليه جلال ووقار، والمظهر كما لا يخفى له تأثير بليغ في النفوس، ومع ذلك رأينا الناس يتحامونه ويشيرون اليه بما ينفر منه، لانه لم يكن يأخذ بهذا الادب القرآني، ويواجه الناس بما يكرهون، فيبدأ وينتهي بتفكيرهم، لا يقول هذا شرك بل يقول يا مشركون ويا أسفي على ما ضاع معه من علم ورواية بسبب تشدده وغلظته، وشهدنا داعية آخر كان ذا وجاهة ونفوذ، والناس عادة لا يميلون الى من كان كذلك، ولكن القضية معه كانت معكوسة، فقد أقبل الناس عليه إقبالا شديداً، خاصتهم وعامتهم حتى العلماء وشيخ الجماعة إذ ذلك كانوا يحضرون مجلسه، وكان يدعو الى التوحيد والى السنة، ويقول كل ما كان يقوله سابقه : إلا أن الاسلوب يختلف مع مزيد علم هذا على ذلك، وعن هذا الشيخ ودعوته التي كانت على النهج القرآني المذكور، انتشر توحيد الربوبية في المغرب، فكف كثير من الناس عن مظاهر الشرك التي كانوا منغمرين فيها ولا سيما في قصد الاضرحة والاماكن التي يقال إن لها تأثيراً أو على الاقل بركة تلتمس، وانقطع الكثير منهم عن المشاركة في المواسم القبورية التي تقام هنا وهناك، وكانت المشاركة فيها من علامة التقوى والصلاح، بل ان بعضها ألغي ولم يبق به عمل، وعنه أيضا انتشرت سنة القبض في المغرب وكانت غير معمول بها إطلاقا ومن أخذ بها من المشايخ عند زيارته للمشرق لم يقتد به أحد إلا خاصته ولم يسلم من الانتقاد

والرد عليه، وهكذا يظهر للجميع أن دستور الدعوة القرآني، كما كان عاملا فعالا في نشر الاسلام منذ البدء، ما يزال على فعاليته في نشر الدعوة وقبولها من لدن الكافة، ولا تبديل لكلمات الله.

ولم تكن السنة النبوية وهي التفسير الرسمي للكتاب العزيز، بمقتضى قوله عز وجل (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) أقول لم تكن السنة بمنأى عن أمر الدعوة، فقد جاء في الحديث الشريف مما ينسجم مع الآية الاولى في الحض على القيام بالدعوة قوله (ص) «لان يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس» وفي معنى الآية الثانية من أدب الدعوة قوله عليه السلام «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» والآيات والاحاديث في هذا الباب كثيرة. وإنما اقتصرنا على بعضها لنخلص إلى المطلوب من وجوب الدعوة على العلماء وفق ما جاءت به النصوص، ومن ثم انطلق علماء المغرب كغيرهم من علماء سائر الاقطار الاسلامية إلى القيام بهذا الواجب، فلم يقصروا عن غاية ولا يزالون كذلك إن شاء الله تحقيقاً لخبر المعصوم (ص) القائل: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

ومن الانصاف ان نقول إن العلماء ما قاموا بواجبهم في التبليغ إلا وكانوا دعاة، فإن المحافظة على أحكام الشريعة الغراء لا تكون إلا بمعرفتها، وتعريف الناس بأحكام الدين وشعائره من عقيدة وعبادة ومعاملة، هو من باب التوعية والتبليغ عن صاحب الشرع عليه السلام الذي قال «بلغوا عني ولو آية» ذلك أن هذا الدين الحنيف لم يات إلا بما يطابق الفطرة والعقل والمصلحة وما يوفق بين مطالب الجسد والروح، فمنه عليه دليل لا سيما إن لقن

من مصادره الاولى الكتاب والسنة ونصوصهما التي تلج القلب من غير استئذان وتصل إلى أعماق النفوس فتملؤها نورا وهدى واطمئنانا، ولقد كانت مجالس العلم تملأ ساحات المساجد في مدن المغرب وبواديه، والناس يتوافدون إليها فيتفقهون في دينهم وتتهذب أخلاقهم وتحسن معاملاتهم وينشؤون أولادهم على ما يرضى الله ورسوله وكان يقال في إحدى الحواضر إن عامتها أذكر للمسائل من علماء غيرها، وذلك لكثرة مجالس العلم بها وشدة ملازمتهم لها، فهؤلاء العلماء كانوا دعاة مخلصين، وبفضلهم بقيت هذه الاثارة من العلم والايمان في بعض العوام وإن كانت تتقلص يوما فيوما .

لكن الدعاة الذين نصبوا أنفسهم للدعوة، لا للتبليغ فقط، كان تأثيرهم أقوى ونفعهم أبلغ وهم إنما يظهرون في الفينة بعد الفينة، حين يكون حال الناس يستدعي ظهورهم لما ينتشر بينهم من بدعة، أو يموت فيهم من سنة، وعندما يغلب الشر على الخير وتعم الفتنة بالدنيا وما يجر إليها، كما هو الحال الآن، هناك يكون قيام الدعاة أمراً لا معدى عنه لانقاذ الموقف وتبصير الناس بما فيه صلاح معاشهم ومعادهم وتجديد الدين بعبارة أجمع وأوضح كما جاء في الحديث الشريف « إن الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » على ان مفهوم العدد في الحديث هنا غير ملزم، أو هو متعلق بالمجدد الاكبر كما هو مبين في محله، وقد اختلفت الاقوال في المراد بتجديد الدين، وبعض المفتونين في هذا العصر ظنوا ان كل ما طابق هواهم، واستخف الناس من باطل الحضارة الغربية هو مما ينبغي تبنيه وإدراجه تحت اسم التجديد، فهذا يريد تغيير أحكام الزواج والطلاق وهذه تريد

بمراجعة أحكام المواريث، اعتبارا بما قررته بعض القوانين الاجنبية في هذا الصدد، ولربما يقوم بتغيير أحكام الصلاة فيجعلها مرة في الاسبوع أو أحكام الصيام فيحدده بيوم أو يومين في السنة ويبيح فيه تناول بعض المأكولات والمشروبات على غرار الصلاة والصيام عند أمم الحضارة المزعومة ولكن الامر كما يقال في المثل : «قطعت جهيزة قول كل خطيب» فالتجديد جاء بيانه في حديث شريف مناطا بمن هم أهله من أهل العلم والدين قطعا لكل تقول وسدا للطريق في وجه كل مدسوس واغل، والحديث المقصود هو قوله (ص) «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

والخلاصة أن الدعوة محصورة في أهل العلم، فهم الدعاة وهم المجددون، لا يقبل من غيرهم قول، ولا يسمح لاحد سواهم فيها كلام، فهم الذين وكلت إليهم منذ طلبت من الامة، وهم الذين شهد لهم النبي (ص) بالعدالة في هذا الحديث فلا يلحقهم بعده تجريح وهم طائفتان مبلغون وقائمون بالحق عند ظهور الباطل، وكل على هدى من الله، وإذا كانت جماعة التبليغ هي الكثرة ولم تنقطع منذ دخول الاسلام الى المغرب، فإن الجماعة الثانية كانت قلية دائما لان مهمتها صعبة ولانها إنما توجد عند الاقتضاء، فحينما تكون الامور عادية لا يتطلب الحال من العلماء إلا النوعية والتبليغ تعليما وارشادا عملا بقوله تعالى (وذكر فإن الذكرى تنفع المومنين) ولكن عند الانحراف عن الجادة وظهور البدع وعموم الضلالات، فإن الوضع يتطلب ما هو أكثر من التبليغ والتذكير، أعني التجليد والمرابطة والجهاد للقضاء على البدعة والزيغ والالحاد اقتداء به (ص) ونهجا على طريق السلف الصالح وأخذا بقوله عز وجل لنبيه الكريم

(وجاهدهم به «أي بالقرآن» جهاداً كبيراً) وليست هذه إلا مهمة الدعاة.

وقد اختلفت مهمة الدعاة في المغرب باختلاف الاوضاع، فالمولى ادريس رحمه الله عند قيامه واجه انتشار مذهب الخوارج الصفرية فلم يهدأ له بال حتى قضى عليه في معارك طاحنة، وعبد الله بن ياسين بعد إرسائه لقواعد الاسلام التي كانت متداعية في قبائل المرابطين، انتدب لغزو برغواطة في بلاد تامسنا، وكانوا أصحاب نحلة فاسدة، قد ادعى متبوعهم المسمى صالح بن طريف النبوة، وتسمى بصالح المومنين، فجرت بينه وبينهم حروب عظيمة استشهد في أثنائها : ولكن المرابطين لم يلتثوا عنهم حتى أبادوهم، وطهروا البلاد من رجسهم.

والموحدون قاموا بإحياء السنة والعمل بالحديث بعد أن كان الفقه الساذج قد طغى على الدراسات الاسلامية وصارت كتبه هي المرجع الاول والاخير، فناضلوا بالجدال والقتال حتى ظهرت كتب الحديث وتداولها الناس واعتمدوها في الفتوى والعمل ولقحت كتب الفقه بعد ذلك بالادلة السنية، والاحاديث النبوية، عند العودة إليها في العصر الذي تلا عصرهم، وكان ذلك من حسناتهم على أنهم في غير هذا المنحى قد سجلت عليهم انحرافات وابتداعات مما جاء به داعيتهم ومهديهم المهدي بن تومرت.

ومن أحسن ما يروى عنهم في هذا الصدد ما حكى عن الحافظ ابي بكر بن الجد انه لما دخل على يوسف بن عبد المومن اول دخلة وجد بين يديه كتاب ابن يونس فقال له يا ابا بكر انا انظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، ارأيتم يا ابا بكر المسألة فيها اربعة اقوال او خمسة اقوال او اكثر من هذا، فأي هذه الاقوال هو الحق، وايها يجب ان يأخذ به المقلد ؟ قال ابو بكر : فافتتحت ابين له ما اشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع

كلامي . . يا ابا بكر ليس إلا هـذا، واشار إلى المصحف، او هذا، واشار الى سنن ابي داود وكان عن يمينه، او السيف .

وفي عهد المرينيين ظهر داعية من طراز آخر هو ابن الحاج الفاسي صاحب كتاب المدخل، ودعوته كانت ترمي إلى تصحيح اعمال الناس بعرضها على السنة وحملها على مقاصد الشرع نية وعبادة، ومنها اشياء استهان بها الناس وهي مما لا يستقيم امره على اصل من اصول الديـن، وكان يقصد الرجوع بالمجتمع الاسلامي إلى ما كان عليه ايام السلف الصالح والعهد الاول، وبمـا ان اكثر إقامته كان بمصر فإن دعوته لـم تقتصر على المغرب بل شملت المشرق والمغرب معا . واثر كتابه في إصلاح الحياة الاجتماعية للمسلمين تأثيراً بليغا، ثم ظهر بعده الشيخ احمد زروق، وهو مصلح كبير شملت دعوته العلماء والصوفية، العلماء الذين مالوا مع الدنيـا والولاة، وصار كل ما يحرصون عليه هـو الحصول على المراتب والمخصصات، والصوفيـة الذين كثرت دعاويهم واشتغلوا بالمظاهر وجمعوا الناس عليهم لإقامة الناموس الذي يحميهم هم ومن تعلق بهم من الاعتراض والانكار . . ولكنه لم يبال ان يقول كلمة الحق في الطائفتين معـا، ويغير المنكر ويحـارب البدعـة، ويزن اقوال القـوم واعمالهم بميزان السنة ويعرف بما فيها من غلو ومجانفة لاحكام الشرع ولا يدع إشكالا او احتمـالا من دون ان يتعرض لـه ويوضحه بما يزيـل ما يلفه من غموض او إبهام، ولو تعلق بمن تقررت منزلتـه وعرفت مكانته عند الخاصة والعامة من الشيوخ، ولذلك اطلق عليه محتسب العلماء والاوليـاء، اعتباراً بما كانت وظيفة الحسبة تقوم به من حمل الناس على الجادة وتغيير المنكر في الاسواق

والحمامات والطرقات وغيرها، فتلك حسبة الدولة على ما يظهر في المجتمعات من تجاوز لحدود الشرع وآداب الاسلام، وهذه حسبة الدعوة على ما يرتكبه رجال العلم والدين من مخالفات لشرائعه ومبتدعات في شعائره، وهي المقصود بقوله (ص) في الحديث الذي روته عنه عائشة (ض) من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد .

وفي القرن العاشر قام بشمال المغرب داعية فريد هو الشيخ عبد الله الهبطي، وصفه غير واحد من العلماء بالمجدد، وكان يدعو إلى التوحيد وفهم مدلول الشهادة والف في المعنى عدة تآليف، وكانت سيرته الذكر والذكرى وبذل النصح لكافة الورى، وله ألفية مشهورة باسمه عامرة الابيات بالنصح والارشاد وذم البدع الشائعة في الوقت وما عليه متصوفة الزمان والطلبة من المنكرات والمحظورات .

وفي العصر العلوي رأينا العلامة المسناوي يقوم بالدعوة إلى سنة القبض في الصلاة وإحياء هذه الشعيرة بعد ما أميتت ويناضل عنها نضال أهل الاجتهاد وذلك في وسط كان لا يعرف إلا كراهيتها وينكر سنيتها . وعرفنا السلطان المصلح سيدي محمد بن عبد الله يقوم بإصلاحات عظيمة في مناهج الدراسة العلمية بالقرويين، وفي القوانين العدلية، ومن أهم ذلك الدعوة إلى إحياء كتب السنة والاخذ بها ونصرة العقيدة السلفية وإقرار الصفات والمتشابه على ما ورد من غير تأويل مع التنزيه . . . وجاء بعده ولده السلطان مولاي سليمان فشدد الانكار على أهل البدع والطوائف الضالة، ونشر خطبته المشهورة في ذلك . وفي منتصف القرن الثالث عشر قام الشيخ محمد كنون بدعوة إصلاحية عظيمة تناولت عدة جوانب من الحياة والمجتمع، ففي الجانب

السياسي تصدى للـولاة المتلاعبين بمصالح الامة فأكثر النكير عليهم والتشهير بهم وألف الرسائل المتعددة في التنديد بأعمالهم ولفت نظر السلطان إلى تصرفاتهم . وفي الناحية الاجتماعية كان معلنا للامـر بالمعروف والنهي عن المنكـر يتقدم بنفسه لتغيير ما يقدر على تغييره، ولا يخاف في اللـه لومة لائم، ومن ذلك حملته الصادقة على الغناء الذي كانت الامـة، قمة وقاعدة، قد غرقت فيه فألهاها عن دينها ودنياها، فكان يصرح بتحريمه وألف فيه كتابه المشهور « الزجـر والاقـاع بزواج الشرع المطاع عن آلات اللهو والسماع »، ومن هذا القبيل ايضا ما كان يذهب إليه من بطلان التسري وحكمه بأنه زنى نظراً لعدم الرقيق الشرعي، ولان المستولدات إنما كن من المنهوبات من القبائل السودانية وغيرها وهن على دين الاسلام، فلا يصح نكاحهن إلا بعد إعتاقهن والعقد عليهن عقداً شرعيا وعدهن من الاربع التي لا يحل الزيادة عليهـن وإلا كان النكاح فاسداً والاولاد المتكونون منه أولاد زنى . وهي دعوة في ذلك الوقت لها خطورة عظيمة، لان الناس على اختلاف طبقاتهم من الاعلى إلى الادنى كانـوا يستحلون هذا الامر . . . وقد جلب عليه ذلك عداوات وخصومات، وأوذي بسببه فطعن في عرضه ونسبه وأدخل السجن ولكن الجماهير الشعبية تعصبت له وخرجت في جيش كبير إحتجاجا على سجنه فأطلق بأمر عال في الحين .

وفي الناحيـة الدينية كان كثير الإنكـار على متصوفة عصره وأصحاب الدعاوي الباطلة في المشيخة والطريق، وربما هجم عليهم في تجمعاتهم وحلقـات رقصهم فيفرقهم بيـده، وبما يتجلى فيه من حال ربانية لا يقدر أحد على الوقوف في وجهه من أجلهـا، ويأمر طلبته ورفاقـه بصب المـاء على المكان الذي

كان القوم يرقصون فيه تطهيراً له ويقول إنها عبادة السامري، وله في ذلك تآليف وكتابات متعددة إلى غير هذا من أقواله وأعماله في جميع المجالات التي ذكرناها. وكان من أول من أنكر الحماية الاجنبية على الذين تحصنوا بها في زعمهم من ظلم الولاة. وصرح بكفر أحد الشخصيات الذين ينتمون إلى بيت كبير من بيوتات المغرب لما استظهر بحماية إحدى الدول التي كانت طامعة في المغرب، وهذا بالاضافة إلى عمله المتواصل في نشر العلم والمعرفة الصحيحة بالتدريس والتأليف والتلقين في مجالسه الخاصة والعامة.

توسعنا قليلا في بيان دعوة هذا الشيخ ومجالاتها لغفلة كثير من الكتاب عنه بسبب إهمال خصومه لذكره وتعمدهم تجاوز حركته.

وفي أوائل هذا القرن عاد الشيخ عبد الله السنوسي الفاسي من رحلة له واسعة في الشرق العربي والهند وتركيا، وقام بدعوة صادقة إلى التوحيد والعمل بالسنة. وكان ذا قوة وعزيمة في ذلك، وبعده انتصب الشيخ شعيب الدكالي للدعوة في دروسه العلمية التي كان يلقيها بعواصم المغرب وغيرها من المدن التي يزورها، وذلك بما أتاه الله من بسطة في العلم وحكمة وحسن تأت للامور، فعمت دعوته جميع الاوساط وآتت أكلها طيبا سواء بالنسبة للتوحيد أو العمل بالنسبة، والتف حوله كثير من علماء الشباب وغيرهم وتخرج به أفواج عديدة من الطلبة الذين بثوا دعوته في كل مكان. وكان من أكبر تلامذته الذين رفعوا الراية بعده الشيخ محمد بن العربي العلوي وهو من العلماء المتمكنين الذين واصلوا الدعوة بقوة أيام حياة الشيخ شعيب

وبعده، وكان في فاس مرجع الشباب الناهض وقدوة العاملين في ميدان الاصلاح .

وجاء جيلنا الذي تبنى الدعوة إلى السلفية في العقيدة والعبادة والنضال من أجل رفع راية الاسلام وإيجاد الارضية التي تقوم عليها دولته، حرة من كل تدخل ومستقلة عن كل تحكم. وهكذا انقلبت الدعوة إلى إصلاح عام وجهاد في سبيل العزة والكرامة على ما كان عليه الامر أيام السلف الذين أعلى الله بهم منار الاسلام وجعل المسلمين يداً على من سواهم . وكان من أبرز دعاة السلفية بهذا المعنى المرحومان علال الفاسي ومحمد غازي والاساتذة محمد المكي الناصري ومحمد الطنجي وإبراهيم الكتاني، واتصلت حركتنا بالشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر وأخدانه من أعضاء جمعية علماء المسلمين بالجزائر وكتبنا في صحفهم وأيدناهم في المعارك التي كانوا يخوضونها في هذا الصدد كما أيدونا في معاركنا المتنوعة .

واعتضدت الدعوة في الاخير بداعية كبير كان مقيما في البلاد المشرقية، حين عاد إلى موطنه المغرب، وهو الدكتور محمد تقي الدين الهلالي فيسر الله على يده فتوحات مهمة في جيل الشباب والشيوخ على السواء، وتمرس به أساتذة وطلاب صاروا من جند الدعوة هنا وهناك .

إن هذا العرض السريع، وإن لم يستوعب جميع الدعاة، يبرز دور العلماء المغاربة في الدعوة بكل وضوح، فهو دور فعال كان له تأثير بالغ الاهمية على حياة الاسلام الصحيح في هذه البلاد وفي البلاد التي تسبح في فلكها من غرب افريقيا وما والاها سواء على نطاق التبليغ أو الدعوة الاصلاحية التي ترمي

إلى التجديد بالمعنى الذي أشرنا إليه سابقا، ولا ننسى فضل جامعة القرويين ورجالها المصلحين في ذلك، فإنها ما فتئت تستقبل الافواج تلو الافواج من أقطار افريقيا، فضلا عن أبناء المغرب فتكونهم تكوينا علميا صحيحا وتبعثهم رسل هداية وإرشاد إلى أوطانهم وديارهم حيث يؤدون واجبهم على أحسن وجه، وبإخلاص تام. وبذلك حفظ رمق الاسلام وبقيت تعاليمه تتحدى مؤامرات الصليبيين وغزو الملحدين في العهد الاستعماري البغيض الذي اطبق على القارة السمراء منذ القرن المنصرم وقبله إلى اواسط القرن الحالي.

وهذا ما يجعلنا نهيب برجال الدعوة اليوم إلى النهوض بأعبائها الثقال وأداء دورهم على الوجه الاكمل كما فعل من قبلهم لا سيما والتيارات الإلحادية قد أصبحت اقوى من ذي قبل، ودعاة التنصير يبذلون قصاراهم في تحويل المسلمين عن عقيدتهم او تشكيكهم فيها على الاقل في المرحلة الاولى، فأمام العلماء ميادين عديدة مفتوحة للعمل والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وأهمها الميدان الذي يخوضون فيه معركة الايمان والمحافظة على العقيدة الاسلامية مما تتعرض له من تسور هذه المذاهب المادية على حرمتها ومنازلتها لها في المدرسة والنادي والمكتبة والسينما وغيرها من الوسائل الإعلامية والتثقيفية المختلفة التي أشربت روح العصر بكفرها وإلحادها عن قصد او عن غير قصد، وذلك في الداخل والخارج، فأما في الداخل فلا كلام في وجوب ذلك، وأما في الخارج ونعني به الاقطار الافريقية الشقيقة، فعلى بعثاتنا التعليمية لها ان تجعل هذا العمل هدفها السامي كما كان اجدادنا حملة الدعوة الاسلامية إليها، فلنكن نحن حفظة على

هذه الامانة بحمايتها ودفع اليد العادية عنها . يلي ذلك ميدان تجديد الدين والدعوة إلى العمل بالكتاب والسنة ومحاربة البدع والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلقد استطاع جيلنا ان يقضي على كثير من المحدثات ويطهر الدين مما الصق به من المنكرات، فاختفت عدة مواسم مما كان يقام على اضرحة بعض الصالحين فيختلط فيها الحابل بالنابل وتقوم سوق الفسق واختلاط النساء بالرجال على قدم وساق ويرتكب باسم الدين من المخازي ما يندى له الجبين، وذلك كموسم الشيخ ابن عيسى بمكناس وموسم بوعراقية بطنجة، وها هي هذه المواسم تحيى من جديد وتستحدث مواسم اخرى تشبهها او تفوقها . وما ذلك إلا من ضعف الدعوة وتخاذلها امام المشعوذين والمتاجرين بالدين ولعل ما بين الدعاة من خلاف وعدم تفاهم، واعني بهم العلماء على العموم، هو السبب في الرجوع في حافرة الجاهلية . فإن من آفة الدعوة ان يكون الجو بين اصحابها غير صاف، فيشتغلون بانسفاسف عن الحقائق . وما انتصر جيلنا إلا لانه كان على قلب رجل واحد فلم يكن بيننا خلاف في الوسائل ولا في المقاصد، وذلك ما ينبغي بل يجب ان يعود اليوم ويسود علاقات الدعاة بعضهم ببعض . وفي النهاية يجب ان يستمر العمل في ميدان التعليم والارشاد والتبيين والتبليغ عملا بقوله عز وجل : « لتبيننه للناس ولا تكتمونه » فإن المساجد الفارغة من حلقات العلم حجة على تقصير العلماء وتقاعسهم عن القيام بمهمتهم الاولى التي تنقذ العوام من الجهل بضروريات دينهم، وتبني المجتمع الاسلامي على أساس الاخلاق الكريمة التي بعث النبي (ص) لإتمامها . فما ظهر الانحلال الخلقي في المسلمين وتفشي

الالحاديين شبابهم إلا بهجران المساجد التي تجمع القلوب على الله وعلى دينه القويم، وعمارة المساجد إنما تكون بالعلم ومجالس الذكر التي قال النبي (ص) فيها ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده بل إن الصلاة نفسها ما تركت إلا من ترك العلماء لواجبهم في تعريف الناس بما لهم وعليهم، ولقد أصبح هذا الامر متحتما على كل عالم عالم، سواء كان ممن يتعاطى مهنة التعليم في المدارس والمعاهد او يتولى خطة القضاء او كان فارغا من العمل الوظيفي، لان تعليم الطلبة قاصر عليهم، ولا ينتفع العامة من القائم به ولا يسقط عنه التكليف الذي ألزمته به الآية الشريفة الآنفة الذكر وهي قوله تعالى : « لتبيننه للناس ولا تكتمونه »، ومثل ذلك يقال في القاضي فإن فصله بين الخصوم لا يعفيه من زكاة العلم التي هي التعليم، وإلا كان هو ومن ذكر قبله كاتمين، ومن كتم علما ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة. والقضاة فيما سبق كانوا أسبق إلى عمارة المساجد بالخطابة وحلقات العلم، وأما الذي لا يتعاطى عملا من العلماء فمسؤوليته أعظم ولا يبرىء ذمته إلا أن يؤدي ما هو مكلف به من التبليغ والبيان على أتم وجه وأكمله.

نسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويقينا شر أنفسنا بمنه وكرمه آمين.

خطـة الحسبـة

تنظيـم اقتصـادي اجتمـاعي ديـنـي

هي احدى الخطط اي الولايات فـي نظام الحكم الاسلامي، مأخوذة من الاحتساب بمعنى حسن التدبير والنظر في الامر، كما في القاموس وصاحبها المحتسب، وتسمى ايضا ولاية السوق لان اكثر نظر صاحبها فيما يجري بالاسواق من غش وخديعة وتفقد مكيال وميزان وما اشبه ذلك.

ولعل التسمية الثانية ترجع الى أصل تخطيطها فقد ثبت ان النبي (ص) ولى سعيد بن العاص على سوق مكة، وتوالى الامر على ذلك حتى اتسعت دائرة نظرها فشملت كل ما يحتسب فيه من امـر بمعروف ونهـي عن المنكر فحينئذ استقرت تسميتهـا بالحسبة. قـال الماوردي فـي كتابه الاحكام السلطانية: «حاصل الحسبة أمـر بمعروف ظهر تركه، ونهى عن منكر ظهر فعله. قال تعالى: (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية، وهي فـي حق غيره أي المحتسب فرض كفاية، وايضا عليه ان يبحث عن المنكرات الظاهرة وعن ما ترك من المعروف الظاهر، ويعزر في ذلك ويتخذ عليه اعوانا

ويعدى اليه فيه وليس ذالك لغيره وهي واسطة بين احكام القضاء واحكام المظالم) .

وظاهر من هذا انها وظيفة دينية دنيوية معا، وليست وظيفة دينية فحسب، كما عدها ابن خلدون وهي في ذالك مواكبة لفلسفة الدعوة الاسلامية التي تجمع بين الدين والدنيا ولا تفرق بينهما، ومن ثم يقال ان الاسلام مصحف وسيف وعبادات ومعاملات، ويخطىء من يقيسه على النصرانية التي فصلت الدولة عن الدين او على اي فلسفة تجعل المحكم بمجنبة من الاخلاق .

الحسبة في السلم الوظيفي

الحسبة بما لها من اهمية في المجتمع الاسلامي تأتى بعد ولاية المظالم وخطة القضاء في السلم الوظيفي على صعيد المدن والاقاليم، كما تشعر به عبارة الماوردى السابقة، وكما كان عليه الحال الى قريب من منتصف القرن الراهن في المغرب. ويبيّن اهميتها ما حظيت به من عناية الدارسين واهتمام الباحثين، حتى خصت بالتأليف، وكتبت فيها عشرات المؤلفات باقلام جهابذة العلماء من المشرق والمغرب، متحدثة عن اختصاصاتها وصفات المحتسب وما الى ذالك، الامر الذي لم تظفر به الولايات الاخرى ولا سيما ولايات (المظالم) و (الرد) الذي يعتبر بمثابة الاستئناف و (الشرطة). ولعل السر في ذالك يرجع الى شدة ارتباطها بمصالح الافراد والجماعات وسهرها على الامن النفسي والعيش الرضى للمواطنين، كما يتبين من اختصاصاتها ومجالات العمل فيها .

وبحسب ما يذكره الفقهاء وما تضمنته كتب الحسبة فان كل ما يتعلق ببخس وتطفيف في كيل أو وزن وما يتعلق بغش وتدليس في مبيع أو ثمن وما يتعلق بمطل وتأخير في دين أو اجر، هو من اختصاصات الحسبة، وينظر فيه المحتسب عند الرفع اليه ويبث الحكم فيه اذا لم يتوقف الامر على اثبات. ثم هو ينظر نظرا عاما في مصالح المدينة والسكان فيقمع المنهكين للحرمات ويغير المنكرات، ويحافظ على العوائد الحسنة ويأمر بالمعروف حتى اذا رأى صبيا تائها فان عليه ان يبعثه الى الكتاب او الى المصنع ويتفقد طرق الشوارع فيواخذ المكلفين بالتنظيف اذا اخلوا بواجبهم ويمنع شغل الطريق بما يعوق حركة المرور ويخفف الاثقال عن الدواب ويحبس الحيوانات الضاربة التي قد تؤذي المارة كالكلاب وغيرها ويمنع رفع الاصوات بالغناء، واطلاق اجهزة الاذاعة بكيفية تؤذي الجيران والعموم، ويراقب المطاعم والاغذية المعروضة للبيع للاطمئنان على خلوها مما يضر بالصحة العمومية، ويدخل الحمامات للتاكد من نظافتها واستعمال المآزر ويتفقد الصناع والحرفيين للحرص على سلامة اعمالهم من الغش والتدليس وكذا الجزارين والبقالة، وما شابههم فيختبر بضائعهم وموازينهم منعا للخيانة والتطفيف، وكذلك يتفقد اسواق الصاغة وباعة الحلي لضمان الامانة وعدم استغلال سذاجة النساء ورقتهن ماديا أو خلقيا، وكل ذوي الصنائع والحرف التي يحتاج اليها الناس يشملهم نظره، ويتعين عليه عدم الغفلة عن ملاحظة احوالهم واعتنائهم بما فيه راحة زبنائهم والمتعاملين معهم سواء فيما يرجع للكفاءة المهنية أو للامكنة والادوات التي يستعملونها من حيث الصلاحية وعدم الضرر.

التثميـن والتسعيـر

اذا خيف من التلاعب بالاثمان نتيجة المضاربة فـي السلع الاولية جاز للمحتسب ان يأمر بوضع الاثمان على السلع المطلوبة ومعاقبة من يخالف ذلك.

واما التسعير فقد ورد النهي عنه ولكن لغلبة الحرص على الناس اجاز الفقهاء التسعير بل طلبوه في خصوص المواد الغذائية كالدقيق والزيت واللحم ومـا شابه ذلك، رعاية للمصلحة العامـة، واشترطوا فيه اذن الامام العادل وجمع وجوه اهل السوق له، نعم في بعض الحالات كالاحتكار ونحوه يجب التسعير .

صفات المحتسب

اشترط الفقهاء في المحتسب ان يكون فقيها قائما مع الحق نزيها عالي الهمة معلوم العدالة ذا امانة وحلم وتيقظ لا يستفزه طمع ولا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يعجل على احد حتى يعذر اليه.

بين الحسبة والبلديـة

تصور بعضهم ان اختصاصات الحسبة هي اختصاصات البلدية، ورأوا ان في إقامة البلديات غنى عن الحسبة وهو وهم باطل بما ذكرناه من سعة نظر المحتسب وشموله لمصالح الافراد والجماعات، ومطالب الدين والدنيا، في حين ان مهمة البلديـة مدنية محض، وهي بعض من كل مما يهتم به المحتسب، ثم ان المحتسب كما بينا حاكم يفصل فـي كثير من الخصومات اليومية، ولا كذلك البلدية. ولا ينكر ان هناك تداخلا في بعض وظائفهما، ولكن البلدية بكل حال لا تغني عن الحسبة ابدا، وقد وجد فراغ كبير

في المجتمع المغربي بل الاسلامي على العموم بعد تعطيل سلطة المحتسب وحجب تصرفه الذي كان يجعل من المدينة في عالم الاسلام مجتمعا فاضلا قريبا مما دعا اليه الحكماء وجاء به الانبياء، وما يزال المصلحون ينادون به .

وغير خفي ان نظام البلديات نظام غربي منبثق من حضارة غير حضارة الاسلام التي تعطي للمعنويات اهمية كثيرة وتتحرك باعتبار ما يقتضيه شرع الاسلام من التوفيق بين مطالب الروح والجسد، وذلك هو ما جعل مهمة المحتسب مزدوجة .

من تاريخ الحسبة

رأينا ان نشأة الحسبة بدأت على عهد النبي (ص) وكان عمر في ايام خلافته يقوم بها بنفسه، واستمرت العناية بها من الخلفاء على اتم وجه، وكانوا لا يولونها الا من توفرت فيهم شروطها من العلم والحزم والدين، وممن وليها في أيام الخليفة الهادي العباسي، الامام نافع بن عبد الرحمن احد القراء السبعة، وسار الامر على هذا المنوال في المغرب، ففي أيام الموحدين كان ممن وليها الفقيه الاديب الشاعر ميمون الخطابي، فانا نجد في ترجمته انه ولي حسبة الطعام بمراكش العاصمة . وهذا يعني انها تفرعت الى فروع منها حسبة الطعام. وفي أيام المرينيين كان شاعرهم عبد العزيز الملزوري ممن اسندت اليه ونقرأ في حوادث سنة 691 ان السلطان ابا يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق امر بجعل الصيعان على مد النبي (ص) وذلك على يد الملزوزى . . وطارت للحسبة في المغرب شهرة لكفاءتها وحسن تدبيرها، جاوزت حدود الوطن الى بلاد المشرق، كما تدلنا على ذلك حادثة الحاج

المغربي الذي اودع ماله عند بعض التجار المصريين فجحده اياه، وعظمت المصيبة على الرجل حتى كاد يفقد عقله وصار يطوف بالشوارع ويقـول من لي بابن ماواس ؟ من لي بابن ماواس ؟ والناس لا يعرفون من امره شيئا، ولا من هذا الذي ينادي باسمه، وكان ابن ماواس محتسب فاس وهو ابن الموقت المشهور ابى العباس ابن ماواس، وبقي الرجل على حاله حتى بلغ خبره ابن ماواس فاهتم بشأنـه، ورحل الى مصر واتصل بـه وعرف قضيتـه واحتال حتى استخرج الوديعة من التاجر الجاحد، وأبلغ امره الى السلطات المصرية التي عاقبته بما يستحق ورجع ابن ماواس والحاج المغربي الى ارض الوطن بعد هذه الرحلة الناجحة، والمهمة الغريبة، والحكاية مذكورة بتفصيل في كتاب الانيس المطرب للعلمي .

وذكر الشيخ ميارة انه كان يرى في صغره بمكتب المحتسب رفوفا عليها كتب عديدة، ولما سأل عنها قيل له انها مؤلفات في احكام الحسبة ينظر فيهـا المحتسب ويستعين بهـا على مهمته .

فالامر كان جـدا كما نرى، والقضية تتعلق بخطة حكم، تنتظم بها شؤون الاقتصاد والاجتماع والدين في آن واحد، ومن المؤسف ان يطغى عليها تيار الغزو الاجنبي في العالم الاسلامي كله، ذلك الغزو الذي انحسر تياره ماديا ولكن رواسبه المعنوية مـا تزال قائمة تثير الشجون وتقـذى العيون، ولكن الامل فـي جلالة الملك نصره الله وطيد في إعادة هذه الخطة الى ما كانت عليه، فهو الذي يستطيع ان يعيد المياه الى مجاريها مع ما تتطلبه الظروف الوقتية طبعا من التعديلات والاصلاحات.. والله ولي التوفيق.

فهرست الكتاب

صفحة

تصحيح بعض الاخطاء المطبعية الواقعة في هذا الكتاب

ص	س	خ	ص
12	17	عشرة وسبع	عشرة مئة وسبع
13	13	ابن سعود	ابن مسعود
14	7	القرآن بلفظ فصل	بلفظ فصل القرآن
14	8	جبريل الدنيا فجمل	الدنيا فجمل جبريل
15	20	الآية	الآية 1
17	3	الحظ	الحض
20	18	باالمنتشرون	المنتهرون
22	1	ومنهم يقول	ومنهم من يقول
22	7	كان	كانا
22	8	تعلمون	تعملون
27	6	او تما	او انما
37	9	رايس	وليس
38	15	الحديثين	الحديثيين
46	13	تسفد	تستفد
47	5	كلها	لا يبطل النفود كلها
54	6	شريعته	وشريعته
60	17	من التحجير	زمن التحجير
67	10	نهج	فرح
94	15	الامامية	الامامة
109	13	مذكراته	مذاكرته
113	22	لا	ل
114	11	احدها	إحداها
117	23	الموحدين	الموحدون

ص	س	خ	ص
120	11	بعكم	يحكم
120	24	بالتحيور	بالتحيز
124	13	اهل اجماع	اجماع اهل
128	11	مثال	مثلا
128	23	محمد أبي	محمد بن أبي
143	19	جيش	حشد
144	20	بالنسبة	بالسنة
149	3	هي إحدى	الحسبة هي احدى
150	8	المحكم	الحكم
150	12	المواردي	الماوردي
151	6	المنهكسين	المنتهكين